الطبعة
3

دار ديوان
Dar Diwan

رواية تاريخية

اللؤلؤ الأحمر

عمرو عبد العزيز

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

اللؤلؤ الأحمر

(رواية تاريخية)

عمرو عبد العزيز

عن الرواية..

بأسلوب أدبي رائع يستعرض الكاتب فترة عصيبة من تاريخ المسلمين مازالنا إلى الآن نحيا بين نتائجها..

فهذه الرواية كأعمال حاتم علي ووليد سيف التي تتناول تاريخ الأندلس وحروب ملوك الطوائف، لكن اللؤلؤ الأحمر تستعرض ما حلَّ بجزيرة العرب من حروب ونزاعات مع الدولة العثمانية من جانب وبين العرب أنفسهم من جانب آخر..

والشخصية الرئيسية في الرواية هو نور الفتى العربي الذي نشأ في الحجاز وحصل قدرا من العلم سبب له حيرة بسبب مشاركته في حروب طرفيها مسلمين وكما تنقل بين البلدان فقد تنقل بين الأفكار مشتت الذهن يبحث عن شيخه القديم.

ظل نور في حالة تعتري كل من بحث عن الحق في كل فترة من تاريخ المسلمين فحتما ستجد من يريدون احتكار الدين ومن يبررون البدعيات والشركيات ومن تحركه المصالح البحتة حتى يصل الإنسان إلى نتيجة مفادها أن كل فرقة من المسلمين قد تصيب جانبا من الحق وتخطأ وأن انتظار الكمال درب من الجنون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول: لهيب الحجاز

[الدرعية ١٧٩٣]

«انظر! قد فلج الأماجد!»

ظهرت البيارق في الأفق قبل الغروب، نشِط أحد الفرسان ووكز زميله متهلل الوجه.

أسرعا نحو الركب المتمهل التيّاه، الذي زاده تعب الغزاة فخارًا، تقافز المراقبان فرحًا وحمَدَا الله كثيرًا على نصر قبيلتهم.

- كم أصابوا منا؟

= واحدًا لا غير ولله الحمد!

- واحد بألف؟

= بل خامل، لم ير عدونا منه كيدًا، أحمد بن عاصم.

- نعرفه، ولا بأس فيه، الحمد لله على أوبة السراة.

= أتعرفان زوجه وولديه؟

- نعم، وقد كان من أفقر الناس، فالحمد لله أن مات شهيدًا بعد أن عاش خاملًا، غير أن أولاده في محنة.

= لا يضيع في عزنا أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تزوجت الأرملة رقية من عمران بن قيس، بعد موت أحمد بأشهر، وضمت إليها ولديها، وأبت التخلي عنهما على الرغم من تجاوزهما سنَّ الفطام، لكن رقةَ حال الزوج وكثرة عياله من زيجة سابقة دفعاه للشكاة إلى أهلها، وطلب منهم أن يساعدوه بضم أحد ولديها على الأقل، فغضبَتْ حينًا، بكت وابنها في أحضانها تودعه، قالت له بين دموعهما: اصبر يا بني، الله وليي ووليك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نشأ نور بين أخواله، وكان آدم اللون، لحيم الجسد، مع رُتَّة ابتُلي بها بعد موت أبيه فشوَّهت نطقه، وزادت بعد تفريق شمل أسرته، وكان مُعايَرًا في صغره من أولاد أخواله، ولم يجد عطفًا وافيًا من الكبار، وخيَّبَت زيارات أمه التي لم تنقطع ظنَّ كل من أقسم له أنها ستنساه، فصارت زمنًا هي الهدأة التي يرجوها في كل شهر، غير أنها أغذَّت في الفراق هي الأخرى وماتت، فانضم إليه أخوه الصغير سالم، وارتجى أن يكون له الموئل من الزوابع لأسرة غابرة.

وكان أخوه نقيضه، أبيض اللون، في وجهه نجابة، وفي لسانه نبت فصاحة، وفي طباعه مرح، فهشَّت له القلوب كافةً، وزادت الأثقال فوق كاهل نور حينما اتخذت المعايرة شكلًا جديدًا، فسالم ابن أخواله، أريب ذكي، وفصيح ألمعي، وهو نورهم ومأمولهم، أما هو فابن أبيه، فاتر الوجه، لا منه نبوغ يرتجى، ولا لسان يُبتغى، ولا ساعد يُرتقب، ثم لم يألفه أخوه، ولم يرضَ بمصاحبته، فتحوَّل العزاء شقاءً، وبارت النفس، وباخت العزيمة.

وأقسم في أول مراهقته ألا يعيره أحد ببدانة، وأن يُنضِّب ما يغترف منه هؤلاء تهكمهم، فامتنع عن الطعام، وآلمه أن لم يسأل أحد ما إذا كان يأكل أم لا، بل ما كُلِّم إلا ليؤذى، فحين لحِظ خاله دوران حياته بين التمر والماء غمزه قائلًا: الحمد لله أن رضي الفيل بشبعنا!

لكن انكسارَه لم يدُم، فحين استبشر بنقصان وزنه، وخفوت التهازؤ؛ سطع في حياته ضوء شمس جديد، هو الشيخ فهد القصيمي، الذي أحبَّه منذ لاحظ اجتهاده في التحصيل، واختبر أخلاقه، فقال له يومًا أحسن ما سمع منذ وِلد: «يا بُني إنك جميل الخُلُق، لطيف المعشر، نابغ في التحصيل، وأني لأرى فيك ما لا تراه من حُسْن، ويتجلى أمامي من نهارِك ما أنت عنه عشيٌّ، فلا ترين نفسك بأعين أهلِك، فما منهم إلا أعور!».

فاجتهد في التحصيل، وعُرف بطلب الفقه، واشتد عوده، ومضت بدانته، غير أن الدق على نفسه وإن قل لم ينتهِ، فما زال يشتجر مع الفتيان، أبناء أخواله وأصحابهم، إذ يلمزونه بمعايبه، ويطعنون في صورته، ولم يحتمل الصبر كما نصحه شيخه، حتى نُكِّل به من بعضهم يومًا، وعُذِّبت كرامته أمام الحي، وذهب إلى الشيخ فهد جريحًا باكيًا، فلم يمهله للسكون من الكلَب، ولم يصغِ للشكاة من الغائلة، بل أخذه إلى أحد مقاتلة البلد، ممن يبجّلون الشيخ الشاب، ويعرفون فضله، ورجاه أن يدربه فارسًا، ليكون هو الطود الراسي لأهله، والمَعاذ الأوحد. ثم قال: «قد تنهنه رجاء تعزيتي، وقد أحنو طِلاب صبرك؛ غير أني أخشى غمر سيف الحمية في أوحال الخشية، فيصدأ وتنفلُّ روحك، وأحسن لك أن تجيد رفعه، حتى يغطي ضوءُه الآفاق، وصقل الحمية القتال، فتعلم الطعان كما تتعلم الفقه، وأقلُّ غفلتي إذ طلبتُ منك الصبر قبلًا!».

وُزِّعت حياته بين تعلم فنون القتال، وقراءة السِّيَر والمغازي، واستيعاب العقيدة، التي ربطها شيخه بالفقه، فنشأ نور وقد تشابك كل ذلك عنده، فالفقه يعني العقيدة، وكل عقيدة درعها البأس، وخذلان الدين تضعضع القوة، وخذلان القوة اجتثاث الدين، ولا إيمان إلا لمن تضافر عنده الكل.

وما إن بلغ، حتى سارع بالمشاركة في المعارك الدائرة تحت راية الإمام، وغاب عن شيخه زمنًا، ثم عاد إليه، فأشاح عنه وجهه، فاسترضاه، واعتذر عن غيابه، لكنه قال له:

- لا يأسفن على الفراق إلا النساء، إنما أسفي على علمك الذي علمت! أيكون سيفك على المسلمين؟!

= لم يكن سيفي يومًا على المسلمين، إنما على المبتدعة، وهم أقرب!

- اقصد يا فتى بيِّن المحاداة، جليَّ الإلحاد، وخلِّ الشبهة للعاجز ذي الفسولة، والدنية للكسول المجترئ، ولا تغتر بتحريش القائل إن المبتدع أقرب، والكافر أقصى!

= وأين هذا الكافر الجلي؟! إنما نحن في زمان فتن!

- ابحث عنه، أيخلو العالم من كافر ظاهر الحرب للإسلام؟!

وتعثر فهْمُ نور، ولم يُمهَل كثيرًا من الوقت، إذ رحل الشيخ من البلد، وعلم أن رجالها لم يكونوا يميلون إليه، وانتبه لتغيُّر خطاب الشيخ إلى الحذر مؤخرًا، واستبان تفرده حين قارنه بغيره، ثم سمع أنه رحل إلى الشام، ولم يهتدِ إليه، وإن تُرِكَت له ورقة مع أقرب تلامذة الشيخ إليه، كان فيها عظةٌ بعدم هجر ذكر الله، ووجوب إلف الاجتهاد في العلم، ومنابذة اطِّراح نور الشرع، وطلب الإخلاص في النية، وقمع اشتهاء النفس شِجار الأقران ومنادمة المُقاتِلة؛ فلا هُجنة أشد من فتور النوابغ. واختتم الشيخ نصيحته إليه قائلًا: «ولعلك إن أحسنت يا نور، تسمع من جهتي ما يسرُّك، ويهدئ ثائرتك، وقد رجوت الله أن يبلغك إياي حينما يضطرب فؤادك المنغمس فيما أكرهه لك، ويرتبك سيفك الذي يقطر دمًا حُقَّ لمثلك أن يتقيه».

لم يفقه نور أكثر ما جاء في ختام الرسالة، وانشغل باستيعاب التلميح، وسؤال التلامذة الآخرين، وكانوا قد احتلوا موقعًا من الشيخ أقرب منه في العام الأخير، لكن لم يظفر بذي بال، وسريعًا ما نُسي الأمر بتوالي الأيام وأحداثها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحسن نور البلاء في المعارك، وفلج على أقرانه، ومدحه الرجال، إلا أن انتماءه لم يستقر إليهم، فقد غُصَّ قلبه مما لقبوه به، وهو عنترة؛ فمِن ألفته بمرامي الناس، وثقفه باطن الهجاء، وصوره المتنوعة، كان متيقنًا أن من لقَّبه لم يقصِد إلى شجاعته محضًا، إنما إلى لونه كذلك، والدُّكنة في وطنه هُجنة، وهو وإن لم يكن أسود اللون، إلا أنه ليس في حسبه ونسبه ما ينميه إلى لون المديح، والمال إما يسوِّد المرء بالعز إن أربى وفاض، أو يسوِّده باللون إن

شح وغاب، وفي مطلع الشباب كان أخوه قد صار شاعرًا يحبه الناس، فكان نور واحدًا من الشجعان، وما أكثرهم، بينما كان سالم واحدَ بلدتِه، إلا أنه لم يبغضه يومًا، لكن تجافيه عنه، وميله إلى مناصرة شانئيه، أجبر نفسه على نُكر كلِّ صلةٍ به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[الحجاز 1810]

تزايلت الرِّيَب من صدر نور حين زار بيت الله حاجًّا مع جند الإمام، إذ طالع ما رُوِي له عن العادت والتقاليد التي استوفزت الصالحين لمحاربتها، وأبصر ما برد قلبه من السعي الصادق في صيانة الشرع من الخرافات التي ذاعت في البلاد برعاية الترك، وشارك في تنظيم مسلمي الأصقاع النائية أثناء مناسكهم، ومخاطبتهم بوجوب الالتزام بشرع الله، وحرمة الأجواء الاحتفالية المُنكرة، وسُخفِ الطبول والمزامير المُذهبة لكل خشية، وخسة ما إلى ذلك من مخالفات. وقد استمع لحكايات أهل مكة، والوافدين إليها من الأمصار، فازداد نُكره لانتشار الدجل بشعار الولاية، والشعبذة باسمِ الحقيقة، وأجال بصره كرَّةً أخرى في قِتاله صلمًا لذلك الباطل، فرضيَ واستقر، ثم أتم حجه ورجع إلى بلده نشِطًا، وكانت الاشتباكات تتصاعد متسارعة، وما لبثت الجزيرة أن فارت بالغدرات والخيانات؛ بمقدم الباشوات الذين صالوا على الناس بمؤامراتهم، وأفسدوا الذمم، وخربوا النفوس.

وقد فكر في الزواج منذ أتم العشرين، ولم تعد تحجزه هُجنة من خَلْقٍ أو خُلُق، فقد جعل نفسه أزهر الناس في الملبس المونِق، وأنضرهم في التعطُّر والتطيُّب، وقطن ساحات النزال، فاستقر من ذوي النُهى الأبطال، وشاع فوز قدحه في تجالد الرُّمَر، وتيمَّن نواب الإمام بحضوره. وحاول الاتصال بالشيخ، لكنه علم بمحاكمة تلامذته المشهورين، وحذوهم حذو إمامهم في الفرار من القرى والالتجاء إلى الشام، حتى لم يبق سوى من انقلب عليه من طلبة العلم، وزارهم يسأل عن علة صرم الولاء، فأجابوه بأن الشيخ كان يُهادن المُشركين لخسيسة في اعتقاده، ولم يعد انحيازه إلى التُرك خافيًا، وفي كل وادٍ وشعب بجزيرة العرب هذه الأيام مغدور من البشوات، فكيف لا يُلاحق؟

كان نور يعلم بُمخالفة شيخه المذهب مع طلبته المقربين، واتقائه باقي الأشياخ بالمعاريض، فلا يملك أحد أن يُمسك عليه شيئًا، إلا أنه لم يُخالف أهل السنة في خطوطهم الرئيسة، إنما شاقَّهم في منهاجهم مع المُخالفين، غير أنه لمس من حواره مع حمد، أحد الطلبة الباقين، ما جعله يشك في إخفائه بعض الأمور، واحتفاظه بخبيئة يخشى اطِّلاع أمثاله عليها، إذ صار معروفًا بموالاة الإمام، وإخلاصه الكبير لدولة العرب والإسلام، ولم تُزِد محاولات نور اللين والتلطف حمدًا إلا تعنتًا وخشية.

قال له أخوه سالم: «اعذرْه، فقد حمِسَ الشر هنا في العامين الأخيرين اللذين قضيتهما في ساحات القتال ببوادي نجد وتخوم الحجاز، وقد صار الكل يمتحن الكل، والامتحان أكثره تلطُّف وتقرُّب ثم غَدْرٌ وملاحقة».

كانت علاقة الأخوين قد صفت وطابت، إذ فاخر به سالم الناس، وكان قد استقر واحدًا من الشعراء المجيدين المطبوعين، وإن لم يصل لمرتبة أفذاذ البادية، لكن مسبوكاته منها حسِنة، ومن لُطف القدر بنور أن سبائكها كانت كثيرًا ما تعلق بشجاعته، فأظلَّ كل منهما الآخر بسحابة ثرَّة، ونُزِّه الفهد بريش الطاووس، وصال الطاووس بناب الفهد، وضاء وجه نور بسموط الشعر، فذاب من قلبه همٌّ مكانَ نبذٍ غير مُعتدِل الخِلقة، وارتفع شأن سالم ببوارق أخيه فانسل من فؤاده همٌّ زمان نُكرِ وادع الخُلُق، وتعلق كل منهما بالآخر، فاستأسد الأنيس بالضاري، وطُوِّس الضاري بالأنيس، وكان من العواقب الطيبة لذلك؛ انطماس أثر معايب نور النطقية كأن لم تكن، ولم يُعرف لذلك سببٌ.

ولم يُمض سوى شهرين، حتى أُمِرَ بالتوجه إلى المدينة المنورة، فأرجأ السعي في الزواج إلى حين العودة، وكان الجميع يتحدث عن معركة فاصلة أمام جيوش الترك وحلفائهم الخونة، ووجوب الصمود أمام جحافل الشرك والنذالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكُن قد اشتبك مع الروم قبلًا، فقد كانت أنشطته التي اشتُهر بها لا تخرج عن نجد وتخوم العراق والبحرين والإحساء، وكانت أغراض غزواته تأديب ناكثي العهود من أمراء العرب قبل أن تحتد شِكَّتُهم، أو إدراك ما ارفضَّ من أحياء العرب قبل أن يعلو شأوهم، ويذيع شِرادهم، فلما وصلته الأوامر بالترحال إلى المدينة، والانضمام إلى حشود المؤمنين الذين يدفعون عنها المشركين، ضج رأسه بكلمات شيخه القديمة المطالبة إياه بالبحث عن الجند الكافر، وقصده وحده، كيما يرتاح من الوساوس والاضطرابات.

شُحِنت المدينة بالعسكر، خير أجناد الإمام، أوفدهم إليها بعد حجته الأخيرة التي حضرها نور، وأتت الأنباء بأن العساكر المصرية إما ستنزل عندهم، وإما ستتجه إلى جدة، فباشة مصر والروم من ورائه ليس لهم مطلب إلا قلبي الحجاز، ولن يضيعوا الوقت في طعان لا يتحلق حولهما، وكانت القلعةُ أهم مواضع المدينة العسكرية غير الأسوار الحصينة، إلا أنها ضيقة، ولن يُلتجأ إليها غالبًا، إذ إنهم قرروا الخروج لملاقاته بقسمٍ منهم متى حضروا.

وكان قد اعتاد المُقاتلة مع بعض بني ربعه ممن يقاربونه في السن، وكان أشجعهم، وهو أكثر المعروفين من فتيانهم في بقية نجد وتهامة، إلا أن

الحجازيين وفتيان عسير لم يكونوا يعرفونه، وقد لاحظ أنهم أشد الناس فرقًا من مجيء الترك، واجتمع مع عددٍ من شباب نجد على رأيه ذلك، فحادثوا بعض شبابهم ممن يُرابط معهم في علته؛ قال:

- لمَ لستم بيَقيننا نفسِه في النصر، وقد وعدنا الله به على أولئك المجرمين؟

= لو علمتم ما علمنا! نحن أخبر بالروم منكم!

- قد علمنا المعارك، وخبَّرنا الأهلون بأولئك السِّفلة، وأنهم غير ناصري الملة، فلا ينصرهم الله.

= ما كان قد كان، وقد أُخذوا بالفُجأة، ولا نحسبهم هذه المرة بنازعين عنا.

- ألن ينصرنا الله على المشركين؟

= إنْ ترس بترس، بلى ينصرنا، فماذا عن ترس بقنبرة ومدفع؟

قال لأصحابه: «خُذِل القوم والله! لا يثقون بنصر الله!».

ولم يكن أهل المدينة أقل تطيُّرًا، وندَّ منهم ما أوحش القلوب، فكان الجمع ينحاز إلى الإمام، ويتبرَّك بيمنه، ويجهر بنصرته، ويكتم بعضهم ما الله مبديه في أعينهم من نكد السرائر، وبرم المكنونات، وقد صفا الود بين نور وأحد مقاتليهم المشاركين إياه، فقال له: «أخشى أهل المدينة»، فقال المديني: «لا تخش سوى الله، إنما نَخِبت قلوب قومي من مظاهر الروم الحافلة، فهدَّ أركانهم وعيد بأسهم، وفل عزمهم غبار سلطانهم، وهم يقرون بفضل الإمام في إزالة ما كانوا فيه من ضلال، لكنهم بين سيفين لا يدري أيهما يُنصر، والعوام عوان من غلب، فإن غُمَّ عليهم اليقين، مالوا إلى أظهر الفريقين، وسيف الترك عندهم أدنى للفلاح في معتقب الأمر، فإن غلبوا وولجوا البلد، كيف سيصنعون بأهلها إن كانوا معكم في فاطر الأمر ومكرره؟ وليس في الترك رحمة، ولا عند المدينيين قدرة».

كُلِّف نور يومًا بالإغارة على جمعٍ من جهينة مع رفيقٍ اسمه خالد الجهني، فكان بقومه أخبر، وأسروا منهم ورجعوا، وكان قلب المدينة يهتز بنزول قادة العساكر المصرية، أحمد بن نابرت وطوسون ابن والي مصر، فانتهر نور جمعًا من أهل المدينة بالسوق يرجف بجدِّ الترك كل خصمٍ ساجلهم، وذكرهم بوعد الله نصرة دينه، وسألهم كيف ينصرون الشرك على الإيمان، فحسر كبيرهم لفاع الخشية، وقال:

- وهل سُمِع عن الشرك بمدينة رسول الله قبل إشرافكم؟!

فارتج على نور وصحبه، ثم قال:

= لأن الجهل كان فيكم فاشيًا، أوَتظنون التوسل إلى الشجر، والسجود إلى الحجر، ودخول مكة بالمزامير والمنكرات، والاعتقاد في النجوم والسحر والدجاجلة، كل هذا في دين محمد؟

- أنتم من سميتموه شجرًا وحجرًا، وهم والله أماكن مباركة، زارها الأولياء ومكثوا فيها وثبت فينا نفعها، ولا نعبد شيئًا من ذلك، وقد أقرنا على ذلك شيخُ الإسلام، وأمضاه فينا السلطان، ولم نسمع يومًا بعالِم يُنكره، ولا إمام يبطله، حتى كنتم، فبتَّكتم بين المسلمين الولاء، وأثَرْتم في الأنام الفتن! أتكونون أنتم في جهة الحق، وسلطان دار الإسلام، وفقهاء الملة أجمعين في جهة الباطل؟!

= بيننا وبينكم كتاب الله وسنة نبيه، والله إنَّ ما أقره الترك باطل وشرك، ولو أجمع عليه أهل الأرض قاطبةً، وسنقاتلهم دون الحق الذي أَمَرنا به نبيه، ولن نتركهم إلا وقد استقام الأمر سيرته الأولى.

فجذبه رفاقه وأبعدوه، وأُمِر بلزوم تحصينه وعدم الخلطة بالعوام؛ خشية إغضابهم في تلك الأيام المُخوِّفة. وقد قال أحد رفاق نور له: «أو تظنن الأمر يعود حقًّا؟». قال نور مغضبًا: «ألسنا على الحق؟ والله إنا لمنصورون».

وتيقظت جموع المقاتلة في المدينة، وحفظت غرتها، وأكثروا من الصلاة في مسجدها، فربط الله على قلوبهم، ووعدوا الناس بأن يوعِّروا كل مرام إلى موئلهم، ويكثروا السُّهاد في كل حرزٍ محفوظ. وقال بعضهم: «القلعة صغيرة»، فقال نور: «لن نحتاجها، بل ننتصر عليهم في كل منزلٍ وساح، وأظنهم لا يبلغونها، فنحن الحاجزون إياهم في الأزِقِّ الضيق بإذن الله».

وكانت حملة ابن نابرت قد غادرت ينبع، وجمعت معها عربان جهينة وحرب، ولم يدهش نور من انحياز بعض العرب إلى الروم، وآمن أن هذا زمان زوال الادِّهان، وخلوص الألباء، واحترام كل مرتكس، فحمد الله أنه في الجانب الموسوم بالصلاح، الموعود بالنصرة.

وبادههم عسكر بن نابرت ذاتِ صباح، ولم يبدُ الترك متعجلين، وأُرجِفَ بالناس، وتخاذل بعضهم لكن ذُكِّروا بالله، وطولِبوا بالإخلاص، وقراءة سورة التوبة، ومع اليوم الثاني بانَ حصار الروم للمدينة من الجهات كافةً، وتلاقت جريدتان كفاحًا خارج السور، فزاد الهَرَجُ بين الرَّهْج، وأُمِر الجند بحفظ المنازل، وكتم الأسف، وعصيان الحَرَد، فالخروج للبراز ممنوع، وفي مساء اليوم الثالث كان قد اكتمل الحصار، وقام في المسجد الجامع خطيب يذكِّر الناس بيوم الأحزاب، ويُعدد أوجه التماثل، واستجاش النفوس الزكية للصبر على المكاره، فقد أدال سلفُهم من قَبلُ طغمةَ الشرك والطغيان، وهم خير الأخلاف لخير الأسلاف، وذكَّرهم أن الترك ما نجحوا إلا بتفريقهم، وأن العرب

أرومة هذا الدين، وأنهم أبدًا منصورون. ولم يهتز نور أو يختلج فؤاده، وكان موقنًا بالظفر والغلبة، ومؤمنًا بأن ما هم فيه هو أحزاب عصره حقًّا وصدقًا، فكان منارة من حوله، مُحفِّزًا ورائدًا، وأحبه الرؤوس وقدَّموه، وقال له أحدهم يومًا: «والله يا بني إنك لأوثق بالنصر منا! فعجب نور منه ولم يُعقِّب!».

ووقع اشتباكٌ عند سورٍ صدًّا لمداهمةٍ ليليَّة فاشلة، وأُسِر جماعة من التُرك، وفيهم رجل مُقدَّم يجيد العربية، وأضِمَ الروم عليهم، وازداد ضربهم المدينة بالمدافع، ومنعوا عن أهلها المياه، وكُلِّف نور وبعض المقاتلة بحراسته في سجن القلعة، وكانت تلك مهمة جليلة، إذ أظهر الروم من الغيظ والتنكيل ما قد يحملهم على تشديد الحملة على موقع حبسه المظنون.

كان اسم القائد محمود إرتورك، وقد عجب نور من حسن عبادته وصلاته، فالغالب في جند الروم التفلُّت من الديانة، والنزّق في الخُلُق، والمباراة في الخِسة، وهذا ظاهرُ أكثر عسكرهم المأسورين، إلا أن إرتورك كان أرومة وحده، يترنم بالقرآن أغلب وقته، ولا يشتغل في خلوته بغير الصلاة والتسبيح، غير أنه كان يجتنب نور، ويتباسط في الحديث مع غيره، علَا فضول الفتى لاختبار ذاك الرجل المُضرَّس، ولم يملك إلا وهو يقول لإرتورك ذات مرة، بعدما جفل منه: «الله أحق أن تخشاه!». فاحمر وجهه وقال مُغضِبًا: «أخشى منك أنت يا فتى! كيف وقد خضت من المعارك ما يفوق أيام عمرك! إنما يذكرني قُبحك بالشيطان!». فانقطع نور وخرج من عنده نازف الفؤاد.

ثم ذهب زملاؤه إلى إرتورك وحدثوه، وخاصة خالد الجهني، إذ كان يجيد التركية كأهلها، لسابق عمله في مساعدة الوالي العثماني، قبل أن ينقلب عليهم، فكان يستفيض في الحديث معه بيُسر، ويوضح له سوء فهمه لكلام القصيمي، فطلب أن يقابله ويعتذر منه، وكان نور قد اجتهد في الرباط على أسوار القلعة، واجتنب الاختلاط بالمأسورين، فرفض وأخبرهم بأنه لا يُبالي، وكان الضرب قد احتدم، وفارت الهيجاء، فنزلت النيران في قلب المدينة، وأضرمت الحرائق في الدور والناس والجند، وزادت الدواهي بشح المياه، وتفلَّتت الأمور من أيدي عسكر الإمام، وجأر الناس بالشكوى، وكشط الحاقدون غشاء التقية، وطُولب العسكر بالتصرف، فتصنَّع لهم القادة، وتخلَّق لهم الجند، إذ لم يكن بِيَدِ أحد شيءٌ، فجند ابن نابرت وطوسون أكثر منهم حصى، منشورون في الجهات الأربعة، ورُجي الناس الصبر على البلاء، واليقين بالنصر، فلن يلبث الإمام أن يسعفهم بالنجدات، إلا أن الشدة كانت تعلو يومًا تلو الآخر.

ذهب نور إلى إرتورك، واعتذر له القائد قائلًا: «يا فتى أقِل عثرتي، فإني عيَّرتك بما لا ذنب لك فيه، وهذه جاهلية مني قضيت أيامًا أتوب منها!». فعجِب نور وقال: «أيقاتل عالمٌ بالجاهلية في صفوف المشركين؟».

- أي شرك؟ السلطان مشرك؟ إنما نجاهد في سبيل الله، وإمامكم هذا خرج على الدولة، واستباح رعاياها، فهو الخارجي لا نحن المشركين!

= ما خرج إلا على دولة تبيح المُنكرات والمُسكِرات، وأنت أعلم بهذا مني، ولا ينفعك نُكرُ ذلك وأنت رجل صالح، ثم أهؤلاء جُندكم المريدون للجهاد؟ معسكراتكم لاهية لا يرتفع فيها أذان، ورايتكم مجمع أعلاج لا يعرفون من الإسلام شَرْوَى نَقِير، وقد رأيتَ فسطاطنا وخبرت ديننا، فبالله أخبرني أي الجمعين أقرب لدين الله؟

- سلمنا أنكم أقرب ظاهرًا لدين الله، ألا يقول النبي في وصف الخوارج إن صلاتنا تحقر بجوار صلاتهم؟ فظاهر عبادتكم ليس مما يُحتجُّ به في صحة دعواكم، بل لعله عليكم لا لكم!

= يكون علينا ما حفظ عدونا الشعائر، وأكرم شرع الله، وصانه من العبث! أما وأنتم لا تُصلُّون، وأجنادكم فساق داعرون، حتى وجَدْنا في قتلاكم من لم يختتن، وجمهرتهم لا يعرفون من الملة إلا اسمها، فكيف تحسبُ أننا وإياكم في ميزان واحد؟

- هب أن جمهرة أجنادنا كما تصف، إلا أنهم لم يشقوا عصا الطاعة على السلطان وأمرائه، وكانوا دومًا في خدمة الإسلام وأهله، فما بالكم في خدمة تفرقة الأمة؟

= ألا تجتمع الأمة إلا تحت راية مذهبكم وسلطانكم؟ فإن فسق السلطان أو ابتدع، أيجب علينا اتباعه كيلا نتشعث؟ بل يجب تغييره إن غيَّر ونكث، وسلاطينكم مُبدِّلون، وقد تركوا أمة العرب في جهل وشركٍ، فكانوا إما مشجعين إياه وراعين، وإما متجاهلين كأننا لا شيء، ثم أنا لما طلبنا الإصلاح ذعرتم علينا العربان والأعاجم، وأخلفتم بين الأحياء، ودسستم بين القبائل، فكل هذا رجاء دين أم دنيا؟

- لا أعلم تفاصيل ما جرى كافةً، لكن اسمع يا فتى، تلك الحرب خدعة، وأنا أراك تحسب القتال على دين، ولعلك تستفيق يومًا وتعلم أن ما في القلب غير ما تحسبون!

= وإن كنت أنزه الإمام عن هذه الأقذار والأغراض، إلا أني أقول لك: هبْ أنه طالب دنيا، أفتظننا نحن ألوف الشباب المقاتلون معه طالبين إياها؟ والله ما نطلب إلا دين الله، ونصرة الحق.

- نعم والله أشهد أنكم تطلبون نصرة دين الله، لكني أرجو أن تفقه يومًا أننا طالبو نصرة دين الله أمثالكم، بل أنتم دوننا في سلوك هذا السبيل، وقد نصر الترك الإسلام أربعة قرون مضت، فأين كنتم؟!

= بل تحسبون هذا! فليت اجتهادك يتوجه للدين الحق، فإني أكّبِر فيك هذه العبادة والتُّقى، فكن سيفًا لله!

ابتسم إرتورك قائلًا:

- يا فتى، لم ينفكّ دم أعداء الله يسيل فوق صفحة سيفي، منذ كنتَ أنت صبيًّا في حِجر أمك، هداك الله!

وكانت بينهما مناكفاتٌ ونقاشات، وسَرَّ إرتورك علمُ نور، وأتحف نور تجاوب إرتورك، وتعرف منه إلى كثيرٍ من أحوال السلطنة، وعلم أن الناس ليسوا راضين تمام الرضى عن السلطان، ولكنهم يتقون به حميَّ الوطيس، فهو موئلهم مِن كل كزٍّ عابس، قال له إرتورك يومًا: «والله لولا حرمة السلطان في الروملي، لرأيتم الروس والإنجليز والفرنجة ها هنا! شرار الخلق، أقذار الحشا، لا ينزعون عنك إلا وأنت دحيرٌ خاشع، نثب عليهم ويثبون علينا، لكن لما غاب كل هذا عنكم، ظننتمونا نلهو في أوروبة!».

ثم أُبعِد نور عن القلعة مع أربعة من زملائه، وطولبوا بالارتباء في الثغور المخوِّفة بالأسوار، وعلم بعد هذا أن بعض النمامين والوشاة قد أبلغوا القادات بأنه يُحادث الأسير ويطيل معه، وأنهم قد يواطِئوه لفدامتهم وذلاقته، فغليت الدماء في عروقه، وشعر أنه مغدورٌ في إخلاصه، مطعون في اعتقاده، وإن هاتفه صوتٌ من داخله قائلًا: أكاذبون هم يا نور؟!

لكن الأحداث لم تُمهِل أحدًا، فقد تصدى لهجوم جاحِمٍ كان الجهنيون والحربيون هم طلائعه، ثم ضاء ليل المدينة وتزلزلت أرضها برعد قاصف، وشاع أن الروم قد دمروا جزءًا من أسوار القلعة، وحرروا رجالهم، وأسروا معهم بعض الجند، ثم لما حُقِّق في الأمر وجدوهم كانوا قد احتفروا تحت السور دهليزًا مُلِئ بالبارود، ثم فُجِّر ودخلوا من النقب.

وللمرة الأولى منذ بدأت الملحمة يضيق صدر نور، ويشعر بالحصار، وفشا الذعر في بقيةِ الجند، فالتجأوا إلى الله بالدعاء، بينما أمسك الجزعُ بعضهم حتى عن إتقان الصلاة.

سأله أحدهم: «أما زلت على يقينك؟». فصمت ولم يجبه، ودبَّ خلاف بينهم ذات صباح، إذ تعمد بعض الجند قتل ثلاثة من أسرى الترك ذبحًا، وجيء بهم، وشهد نور مسألتهم، لكنهم كانوا أهدأ حالًا مما كانوا قبل جريمتهم، وكانوا على استعداد تام لمجابهة أي مصير ولو كان الموت! واشتجرت مشاعر متناقضة في نفسه، إذ كان غاضبًا من صنيعهم، كيف لا وقد قتلوا من هم في ذمتهم الأسرى؟ وكان مرتاحًا، أليس هؤلاء الأسرى هم مَن يحرقون الرجال والشباب بلا شفقة؟ واضطرب منطقه، أحقًّا مُشركٌ ذاك الأسير كما يُبرر

القادات ويؤمن الجند؟ إن كان الخارجي غليظ القلب، فمن الخارجي فينا؟ كيف نحن وقد نزع الله الرحمة من قلوب العساكر الرومية، فأنزلوا بالناس شنائع العقوبات مما لم يقرأ عنه في شرع ولا ملة! ثم سرى عقله عنه، وربت على فؤاده، مكررا: الصلاة! الصلاة! الحد بين المسلمين وغيرهم! انظر إلى معسكراتهم وأسراهم! مُصَلٍّ واحدٌ في ألف جندي؟! هتف أحد الأجناد: «نحن على الحق، والله إنا لمنصورون». لكن لم يُجِبه أحد، ولم يشاركه صياحَه عاقل أو مجنون، ظل الكل صامتًا.

ثم دهم المرابطة قصف يأتيهم من خلفهم، ودوي مدافع في قلب المدينة، فانفلتت الصفوف، واهتاج المقاتلة، وأُمطروا نيرانًا من فوقهم ومن تحتهم، وصاح مُنادٍ: «القلعة! القلعة!». فهرع الجميع إليها منهزمين، متحصنين في أسوارها، ولم يكن ثَمَّ فرقٌ بين شجاع وجبان، وارتفع صوت الروم بلسانهم الأعوج يسبونهم بأقذع ما يُمكن أن يسمع بشر، واحتشدت جموع الناجين، وهم ألوف، في القلعة الصغيرة.

بكى بعضهم، وصرخ الآخرون: «خاننا أهل المدينة! خاننا أهل المدينة!». لكن كذَّبهم الأجناد المدينيون، وكادت تشتعل فتنة بين الناس، لولا أن علا صوت المدافع، ونزلت القنابر والنيران عليهم في ساحة القلعة! أيحرقونهم أحياء؟ التصق الشباب بالأسوار، وتجمهروا بالعشرات تحت كل حجرٍ مُخبِّئ، وتواتر القصف ساعة، وكانوا يرون الهدم الحجري يسقط فوق المحصنين، فيقتل الجمع في لحظة، ولم يجد أحد سبيلًا لإنقاذ إنسان.

ولما همدت الجلبة، انفرد صوت صياح الجراحات والآلام والمناشدات، وهرول بعضهم يُنقذ المدفونين، بينما استلقى بعضهم الآخر على الأرض أو رقد عاجزًا، وكان نور منتكسًا تنزل منه العبرات، فوكزه صاحبٌ له قائلًا: «قم يا أحمق! الشجاعة الآن! الدمع للنساء!». فنهض متثاقلا في البدء، ثم نشِطَ في الانشغال بنجدة المصابين.

ثم قويت القلوب عند المساء، وقام فيهم أحد القادة خطيبًا، فقال: ليس ما نحن فيه إلا أعجاز ما قدمنا من ذنوبٍ، وما كان الله لينصرنا ونحن آثمون، فقوموا إلى الصلاة واجتهدوا في الدعاء، ولولا أن بعضنا شكَّ في النصر ما أوتينا، بل اليقين اليقين، والثبات الثبات، فإما نصر أو شهادة.

وانزوى نور في الزحام الخانق يسمعُ، وقد أقعى مسندًا ظهره إلى جانب السور، خامل العينين، خامد العزم، تطوف برأسه ألوف الأفكار يمنة ويسرة، لا يستطيع إيقافها، ولا التدبر لحظة في أيٍّ منها، وكان يرجو النوم فلا يملك الزمام، ويحلم بالقيام على الأسوار فلا يقدر، وظهر في تلك اللحظة بعض

الخاملين ممن لم يُنتظر منهم بأسٌ ولا نجدة، ثم كانوا هم سراة الناس في الشدة!

وقبل ظهيرة اليوم التالي، نزلت بالجند النوازل مرة أخرى، فأُمطِروا بوابل من المدافع، ورُمي عليهم بالبندق والبارود، وتعالى الصراخ، ثم نُزِعَ عنهم ساعة، وعاودوا ذلك في المساء.

كان كل واحد يمكث في مكانه منتظرًا قدره، فلا يوجد موضع قدم ينزح إليه، وجُمِعَت الجثث المتكاثرة في أكوام متفرقة؛ لإيجاد موضع للحركة، وكانت الجثامين بين حرق وجراحة وأطراف مقطوعة وأحشاء متناثرة، فانتشرت روائح النتن والقيح والعفونة، وتعالت أصوات الدعاء والقنوت، كانوا جوعى عطشى، يتألمون من الإصابات والكسور والحروق والجروح، ومن انسداد المنافذ، ولم ينتهض أي خطيب بشد أزر الناس، فلعل القادر خشي أن يُقتل تغيظًا.

ثم أشرقت شمس اليوم الثالث مصحوبة بالمئين من قذائف المدافع، وتجلى الأمر واضحًا أنهم لن يتركوهم إلا وقد صلموا منهم كلَّ مُهجة، وفشا القيء والإسهال بين الجند، وطمعت ديدان الجثث في الأحياء فنهشتهم، ولم يعد في إنسان قدرة تدفع شرها عنه، وباض الذباب والحشرات في جراحات الأحياء، فما حل اليوم الخامس إلا وهم رقود على الأرض الحجرية، تتلاعب في فتحات أجسادهم اليرقات، وكان حال من هم في ساح القلعة أحسن من حال الموبوئين في حجراتها وسراديبها المظلمة المزدحمة، غير أنهم كانوا الأسرع موتًا؛ بسبب حجر النار الممطر حصدًا للأرواح.

وقد ظل نور مثل غيره، راقدًا بلا حراك طوال هذه الأيام، فلا معهم سلاح يردُّ نكالًا، ولا في جعبتهم علاج يدفع المنيَّةَ، وقد مرت كل لحظة كألف عام، وكان يغيب عن الوعي ثم يستفيق على صياح المقصوفين أو عويل الموجوعين، ثم يغيب مرة أخرى، وأظهرت بعض اليرقات رؤوسها من جراحاته، وقد استيقظ صارخًا ذات مساء حينما مس قدمه حريق يأكل بعض الأجساد المتناثرة حوله، بعدما سقطت عليها من السماء كتلة نارية، فلملم أقدامه غريزيًّا، ثم لم يلبث أن غاب عن الوعي مرة أخرى، ولم يستطع أبدًا أن يُفكِّر، فقط كانت تأتيه خطرات في بعض الأحيان، فيضحك، أو يظن نفسه يضحك، ثم تذوب الخاطرة فلا يدري ما كان يبحث فيه أو يضحك عليه. لم يكن يتأمل في حياة أو موت، لم يعد عقله يعمل، إلا أن الرائحة التي لا تُطاق من خليط القيء والإسهال والبول والأحشاء المتناثرة المغطاة بالذباب واليرقات والديدان والجثث المتعفنة؛ ظلت هي المسيطرة على حواسه، وما تمنى الموت إلا للخلاص منها.

ثم استفاق ساعةً فوجد أصحابه قيامًا يتحركون، ولم يفهم شيئًا، ولم يجد من الأيْدِي ما يعينه على السؤال أو الحركة، لكن بعض من حوله أنهضه متكئًا على أكتافهم، وزحف المسير المتضعضع في صمت الجزع، وانكسار التهيُّب، وألم الذِّلة.

وخرج من القلعة على هذه الحال، فسمع صوت عسكر الترك الحازم يزعق آمرًا بالاستمرار في التحرك، وأغلظ عليهم العرب المُعادون، وتناثرت الشماتة من الأفواه، وصُفِع هو والمرافقون له على أقفيتهم، وأفحش الترك في سبِّهم بعربية متضعضعة، وقسا عليهم العرب في الضرب والوكز والجلد، ووقف شاعرٌ منهم يهجو الإمامَ عدو الله ورسوله وخليفة المسلمين.

وجُمِعوا في إحدى عَرَصاتِ المدينة، ومر عليهم الترك بالماء والطعام، واستعاد نور وعيَه للمرة الأولى منذ أيام، وأفاق في اليوم الثاني، واستطاع أن يجلس متهدم البنيان، فأجال النظر فيمن حوله، كان الحشد قد اسودَّت وجوههم من أثر الدخان والحرائق المستمرة لأيام، وتمزقت ملابسهم التي حال لونها من الدم والقيح والدواهي التي عمتهم، أما الشعور واللحى فبينَ منثورٍ قبيح الهيئة، وبين كاملِ الاحتراق. بينما كان الترك في أبهى زينة، وتخبرُ أرديتهم الملونة الزاهية وعمائمهم العالية النظيفة وأجسادهم القوية السليمة بما جرى دون مقال.

قال بعض الجلوس حوله: «ما لنا والترك! كيف حسبنا أننا سننتصر على أولئك الغيلان؟!». قال آخر: «لولا خيانات أهل المدينة وأحياء العرب ما نُصِروا علينا!» قال: «أو تحسبنا كنا سنهزم أولئك يومًا؟ ألم تر المكائد والحِيَل؟ ألم نشهد جلدهم وبأسهم وكثرة عسكرهم؟».

وقال بعضهم: «والله إن السلطان هو الحق، فلِمَ غُلِبنا إن كان على باطل؟». وردَّ عليه بعضهم ساخرًا: «أنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين؟». قالوا: «لو كنا على حق ما تخلى عنا أهل المدينة!». قالوا: «إن أكثر الناس للحق كارهون!». وقال آخر: «والله لولاكم يا بني فلان ويا بني فلان ما أخزانا الله، فما كنتم تُحسنون صلاةً ولا دعاءً!». فاهتاج الناس وقال المطعونون: «بل وأيم الله ما أوتينا إلا من ناحيتكم، أهلكتم الناس بصلفكم وكبركم». وتهارش الناس ثم سقط الجميع سريعًا في تعب.

وقبل صلاة المغرب، وجد نور بعض جند الترك فوقه، ومعهم أحد زملائه يدلهم عليه، فأنهضوه وأخذوه معهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتيد نور إلى خيمةٍ صغيرةٍ وُجد فيها القائد إرتورك بكامل أُبَّهته، كما لم يره من قبل، وكان برفقته زميل آخر له، هو خالد بن أحمد الجهني، وكان أثر

المعالجة باديًا عليه، وليس في حالة رثة مثل نور وصاحبه، رحب بهم التركي، وأثنى عليهم، وترحم على زملاء آخرين، فعلم نور أنه استدعى الجماعة التي خالطها في القلعة، والتي لم يبق منها سوى أولئك الثلاثة، وبعثه إلى أحد أطباء الجيش يعالجه، وأوصى بحسن المعاملة، وهدد الجند بالويل إن مسَّهم أحد بأذى، وقضى نور يومًا في تنعُّم، وإن نغَّص عليه عيشَه عودة اضطراب منطقه واشتداده، ثم استعاد وعيه كاملًا للمرة الأولى منذ أسبوعين بعد يومٍ من الإطعام، واستدعاهم إرتورك إلى خيمته ليباسطهم ويتلطف معهم، وإنَّ حزن مما أصاب نور في لسانه من خلل في النطق، وظن أن ذاك أثر الحوادث التي أفدحته، ولكن لم يُشر إلى هذا في كلامهما، قال نور: «لا أعجب من حسن أخلاقك ومروءَتك فقد خبرناها، وقد زادها إحسانك، وأنت سيد آسر، بهاءً فوق البهاء، فجزاك الله خيرًا؛ غير أني أعجب كيف فعلتم بنا ما فعلتم!».

= هذه هي الحرب يا فتى، وقد قاتلناكم على عوائدنا بل كنا فيكم أهل رحمة، أما ما ترونه قسوةً وظلمًا وخيانةً فليس إلا أقل صنائع الهيجاء في دنيا الناس، ولعلك لو رأيت الروس أو الفرنجة أو الإنجليز وكيف يقاتلوننا ونقاتلهم، لأيقنت أننا من أولياء الله الصالحين.

- وإنْ فَجَرَ أهلُ الباطل، أيفجر أهل الحق؟

تبسم إرتورك وهز رأسه متهكمًا وهو يقول:

= الحق أن منطقك عجيب! فما رواه لي الناس هنا من أهل المدينة نفسها لا ينصر جدلك، فمؤاخذاتك علينا وقع في مثلها إمامُك وعماله، غير أني لا ألومه فهذه هي الحرب، ثم إن كنتم على الحق، لِمَ باعكم أهل المدينة، أهل الخير والبركة، ونصرونا؟

- أحق ما قيل إن بعضهم خاننا؟

= بل الحق أن الجميع ناصرنا، وفتحوا لنا الأبواب مرحِّبين، ثم كانوا معنا عليكم ونحن نحاصركم في القلعة، فحيزت للسلطان الدنيا، ثم رحمكم قاداتنا وأعطوكم الأمان للخروج من القلعة، ولم نحصرْكم، ولكن كنتم أنفسكم ظالمين، ولو أردنا بكم الفناء ما كان قد دفع عنكم إنس ولا جان.

وبدأ الجند يؤوبون إلى مواطنهم في نجد وغيرها بعدما خلَّى ابن نابرت وطوسون عنهم، وتجهز نور لمرافقتهم، غير أن زميله خالد الجهني طلب من إرتورك أن يصحبه إلى بلاد الروم للانضمام إلى الجيش العثماني الغازي في أوروبا، وكان التركي قد أبلغهم بأنه طلب من رؤوس الجيش العودة لشعوره بإثم حربه في البقاع المقدسة، ولما كانوا يعرفون مشاعره الدينية المتأججة،

وأنهم لن يثنوه عما أزمعه، قبلوا أن يقفل إلى الباب العالي للمشاركة في جبهاتٍ أخرى غير عربية، فطلب نور منه أن يلزمه حتى الشام، إلى دمشق تحديدًا، كي يبحث عن شيخه الأثير، إذ إنه يفتقده ويريد لقاءه، وهو ليس مؤهلًا للاشتجار في المزيد من المعارك حاليًّا، فوافق التركي.

كانت رحلتهم إلى الشام مفعمة بالمسامرات الحادة، ومترعة بالنقاشات اللطيفة التي جلها في صلب الديانة والفوارق المذهبية، وكانت تحدث وحشة بين نور وإرتورك في بعض الليالي، حتى خاف على نفسه، وآثر الأناة وعدم الملاحاة، لكنه لم يُنكر أبدًا تحيُّره من تقواه واستغراقه في العبادة، وعلم من خالد الذي كان يحادث الجند الأتراك بلغتهم فيعرف منهم ما يفوتهما من تاريخ الرجل، أن إرتورك معروفٌ بصوفيته وزهده، وأنه ما سل صَمْصامه يومًا إلا خشية خلو صحيفته يوم القيامة من الجهاد، وأن مساهمته في نِزال الحجاز كان بطلبه، إذ أراد إخلاء البلاد من الخوارج المارقين، ثم لما حدث حصار القلعة حاول التوسط في الصلح، وتحدث بين الرؤساء عن حسن إسلام أولئك المحصورين، وأن فيهم شبابًا طيبًا اغتر ببعض الدعاوى، وقد تألم لبلواهم ومَرِض لمصابهم، حتى فك الله الطوق، وأذهب همهم وهمه، فنشط في البحث عنهم وإكرامهم.

وقرر الرحيل رغم اشتياقه لمكة، لكنه كان قد أقسم ألا يروع أهل بيت الله ولو بحصاة، ووجل فؤاده مما قد يفعله رؤساؤه، واغتمَّت نفسه خشيةً من الإثم، حتى جاءه في المنام رؤيا بأنه يقاتل الكفار الروس، فعدَّ ذلك أمرًا من الله بالرحيل إلى بلادٍ عدوُّها ظاهرٌ.

ثم عرف نور من خالد أن بعض الجند قد حذروا إرتورك منهما، وأنهما لا يمكن أن ينسيا ما نزل بهما في الحرب والحصار، ولاموه أن نادمهما، وقد دافع إرتورك عن زميله كثيرًا، وأخبرهم بأنه يعدُّه مثل ابنه، أما نور فسيرحل عنهم قريبًا، وكانوا يسمونه شيركناز، ولم يعرف معنى هذه التسمية ولا سببها، وإن أنكر إرتورك عليهم قولها، ولم يرض خالد بترجمتها، فلم يأبه.

ووصلوا إلى دمشق، وكانت بلادًا ضخمة حافلة، فرح بها نور، وفاقت في زحامها الدرعية، ولم يكن قد رأى لعمارتها مثيلًا، وعجب من مساجدها العملاقة المأهولة ليلًا ونهارًا بالناس والعلم وطلابه، وفارق إرتورك وشكره صادقًا، وقال له الأخير باسمًا: «اعلم أنني أكبرت فيك الصدق والثباتَ وإن خالفتُك، وأسأل الله لك الهداية والصلاح يا نور، غير أني أرجو لك ألا ترفع سيفك في وجه مسلم بعد اليوم». فقال: «ليس هذا إلا مرادي ومسعاي».

وزوده ببعض المال، وتوجه إلى طلاب العلم السائحين، وعاش معهم في الأوقاف، وعرفهم بالشيخ الذي يطلبه، فلم يستدلوا عليه، وقالوا بأن البلاد

عامرة بالعلماء، غير أن بعضهم أرشده لمكان الحنابلة، ففيهم أشياخ من جزيرة العرب ونجد. ثم يئس من إيجاده، وتحدث في شأنه بعض طلبة العلم مع شيوخهم، فاستحضروه وأخبروه بأن شيخه انتقل إلى حلب، وقال له أحدهم: «لكن الشيخ فهد القصيمي ليس بذاك، وأعيان العلماء هنا؛ فإن كنت تروم العلم فهنا طلابك ومبتغاك، فما شأنك؟». وأنكر نور كلامهم في حق شيخِه، لكن منعه الأدبُ من جدالهم الفحول، وحجزت الرهبة لسانه عن معارضتهم وهم بين أجياش طلابهم.

اختلى نور بنفسه وساءلها، لِمَ يذهب إليه؟ ما الذي ينتظره منه؟

أيطلب العلم؟ فليجلس في دمشق!

أيطلب الحرب؟ فليعُد إلى نجد! وكان قد قرر منذ البداية أنه راجع إليها.

أيطلب قتال صرحاء الكفر؟ فليلحق بإرتورك الذي أخبره بعلاماتٍ يستدل بها على موضعه في إسطنبول.

ما معنى ذهابه إلى شيخه القديم؟!

لم يعرف جوابًا لهذا، وعجب من تحوُّل هذا البحث فجأة إلى هدفه الأوحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني: قلعة لوبتش

[إسطنبول 1813]

تهيَّب خالد الجهني إسطنبول منذ وصلها، صحيح أنه كاد يُجنُّ من الطبيعة الخلابة للبلاد منذ دخل قونية، وظل طوال الطريق يسأل نفسه كيف لو مات دون أن يشاهد هذا الجلال! وأي مأفون يقول بأن بلاده أعظم من تلك الحاضرة إلا من قبيل المفاكهة والهزل، إلا أنَّ إسطنبول قد فاقت في إبداع الصناعة كل ما تصوَّره في خيالاته، فقد خلقها الله مُنيرة بألوانها الزاهية، زُرقة مزخرفة بالنوارس، وخُضرة مُرقَّشة بالأزهار، وبلد منظوم في تلال للناظر، كأنما في تيهها بفتنتها ترفض أن تنبسط سهولًا، فيفوت المتأمل روعة خلقتها وتمام بنيانها ووفرة زينتها، وقد أفاض العثمانيون عليها الوضاءة بالمساجد العملاقة المُهابة، والبيوت المنتظمة كالعقيق الأحمر، ولم ترضَ الأمم أن لا تسهم في ذلك الرونق، فبعثت سفائنها الكبار الفخمة تمر ذهابًا وإيابًا.

ولا يشهد ذلك إنسانٌ دون أن يشهق من خلوص الجمال؛ فأنت في إسطنبول إما عند الشاطئ، فتروعك لوحة التلال، وإما فوق الذُّرى، فتبهرك لوحة البحر.

وحدث إرتورك في ذلك فقال له مهمومًا وهو يزفر: «إن عشت هنا بين السائسين، فستألف التسبيح ابتهاجًا كل يوم، وستألف التعوذ خشيةً كل ساعة! هنا تحيا أجمل بلاد الدنيا، وتنتفش أمكر مكائدها!».

ولحظ إرتورك بعض فوضى في الطرقات، فأغذَّ بالركب، إذ أُخبِرَ منذ كان في قونية ببادرة فتنة جديدة بين السلطان محمود والانكشارية، وهو يذكر المرة الأخيرة التي حمس الشر فيها بينهم، فقد توقَّدت إسطنبول، وقُتل الصدر الأعظم وعشرات غيره، وانتشرت الحرائق في الأحياء، وهرع إلى بيته في بويوك شهير، فاطمئنَّ على أهله، وكانت زوجاته خائفات فأمَّنَهن، واطمأن على ابتعاد أولاده الكبار باشتراكهم في معارك ضد الصربيين، واجتنابهم الوجود في قلب الدولة المتشظي.

ناصر إرتورك الانكشارية في أول الفتنة السابقة، إذ إنه كصوفي بكطاشي مخلص كان يرى حُرمة الاقتداء بالأنظمة الأوروبية الكافرة، ولما كانت رتبته وسيطة في الدولة، في وقت كان كل طرف يجمع فيه الأحلاف، كان رأيه جسيمًا، ولم تسمح العلاقة بين البكطاشية والانكشارية بغير التحالف، لذا انضم لهم في البداية، ورفض مقترحات الصدر الأعظم القاضية بتحديد الانكشارية وتقييد سلطانهم، وكان بعض الأشياخ ممن يحيطون بإرتورك يقولون له: «أولاد عثمان يميلون عن الإسلام يومًا بعد يوم، وماذا بعد أن نصنع

جيشًا على عوايد الكفار وصفتهم؟ لعله يأتي بجند من الفرنسيس أو الإنجليز لتدريبهم، فيتميع الولاء في دين الله!».

فهتف وقد تحمم غضبا: «الموت للمسلم خير من التشبه بالكفار».

إلا أن السلطان في اجتماعه ببعض وجهاء البلد، ومنهم البكطاشية، كان هادئًا، قال لهم: «أنتم تتهمونَني في ديني، والفيصل بيني وبينكم شيخُ الإسلام، فإن أنكر صنيعي أقسم أن أتبعه بلا ردٍّ». فقال شيخ الإسلام بجواز صنيع السلطان، وأفتى بوجوب طاعته، وقد حضر إرتورك اجتماع بعض البكطاشية منفردين بالشيخ في اليوم التالي، وبيَّن لهم أن هذا ليس داخلًا في التشبه بالكفار، وأن الأصل تقديم إحسان الظن بولي أمر المسلمين، وتبلبل خاطر إرتورك حينًا، إلا أن بغي الانكشارية جعله ينفر منهم، وتبرَّأ إلى الله من الطرفين حينما قُتل السلطان الأسبق مصطفى الرابع تخويفًا للمتمردين، وآثر اعتزال الفتنة، فلما انتهت بتراجع الطرفين، كان قد وُصِم منهما معًا بالتخاذل، ولم يعد له مكان في الدولة، وتدنت مرتبته في الجيش، وأُخرج من البكطاشية.

ولما استُفِز بأخبار سيطرة الخوارج على الحرمين، طلب أن يُشارك في الحملة عليهم، ووافقت الدولة على إعادته؛ لاحتياجها إلى كل إسهامٍ، إضافةً لترحيب الأطراف كلها بهجر أي شخص مزعزع الولاء قلب الدولة، وقد كان.

أُنزِل خالد في بيت من بيوته، حيث يجتمع بعض المقاتلة التابعين لإرتورك، وتضايق خالد من سكنه معهم لمخالفتهم العوائد والطباع، وصارحه بذلك، إضافةً لنفورهم المتبادل بسبب اختلاف المذاهب، فذهب به إرتورك إلى مسجد كبير، وقال له: «هنا ستجد مبتغاك إلى حين نرحل من إسطنبول لنواحي بلاد العصيان». وفي هذا المسجد تعرف خالد إلى القاضي (زادلية)، وهم طائفة تركية، تتمحور دراستها في كتابٍ اسمه وصية (نامه)، كتبه (بركوي محمد أفندي) في القرن السادس عشر ميلادية بإسطنبول، وهو رجل أثري مُقتدٍ بابن تيمية وابن القيم، وكانوا خصومًا للصوفية والبكطاشية، وبينهم إحن ونزاعات طالت قرنين قبل ظهور الإمام في نجد، فسيطروا حينًا على القصر العثماني، ودعوا إلى قمع البدع والخرافات، وقطع دعم السلطنة عن التكايا والقبور، وتحريم الرقص الصوفي، وغيره من الممارسات.

كان إرتورك يكرههم بحكم النشأة، لكن معاركه في الحجاز، ونقاشاته مع نور وخالد ورفاقهما، غيَّرا من رؤيته، وحاول منذ وصوله إلى إسطنبول التقرب منهم، وحينما أحضر لهم خالدًا وعرَّفهم به، تلقوه بالترحاب والسعادة، وقالوا له إن الله ناصر الحق، وإن أبدوا ضيقهم من الخروج على السلطان. قال الشيخ مراد أفندي كبيرهم: «السلطان محمود يخوض ملحمةً ضد الانكشارية ومن يدِّعمون عليهم من وجهاء الناس وأعيان السلطنة، وهو شاب شجاع لا

يخشى أن يغير الباطل متى عرفه، ونحن نسعى لتعريفه بأخطاء التصوف وخبالات حركاته، ولعله إن عرف صار خير معين لنا على إحقاق الحق في أمة المسلمين، أما الخروج عليه ومنابذته والجهر بالعداء للدولة فهو شر، وقد وصلت حركتنا إلى الباب العالي مراتٍ من قبل، وغيَّرنا من سياسات الدولة العلية غير مرة». وشرح لهم خالد الوضع في نجد والحجاز قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبيَّن لهم ما غاب عنهم، فأثْنوا عليه وعلى جهوده، وإن ظلوا على رفضهم لقتال الخليفة العثماني، وقضى خالد وقتًا طيبًا بصحبتهم، وكان جمهرة كبارهم يجيدون العربية، وقد سعدوا بإجادته اللغتين، وتولى إرتورك مع أتباعه تدريبه في النهار، ثم كان يذهب إلى موئل الأشياخ مساءً للمبيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت أشهر عديدةٌ في إسطنبول قبل أن يخرج إرتورك وجماعته إلى بلاد الصرب بصحبة جريدةٍ عثمانية، وكان قد سرى في البلاد خبرُ عتوِّ التمرد الصربي، المستمر منذ سنوات، وكان قد دخل الروسُ بالتحريض فيه، فصار هيجاء شَموسًا.

كان خالد قد تغوَّل في تعلُّم التركية، إذ عاضده الشيخ مراد والطلبة السلفيون، وفرغوا له أوقاتهم، واجتهدوا في ذلك، إذ كانوا يرجون منه الإعانة في ترجمة ما يمكن استجلابه من كتب النجديين، وأخبرهم بتشابه الأقوال في المسائل، وأحبهم وأحبوه، وقد كربهم خروجه مع إرتورك، ووعدهم البقاء في صحبتهم متى قَفَلَ من الجهاد ضد الكفار.

روى إرتورك أخبار الصرب، وكان يُزكِّي فيهم البأس، ويبغض ازورارهم عن الإسلام، ويرى أن السلطنة عثَرَت بالتسامح مع الجافين لقرون، فكبت من حيث توخَّت العفو، إذ كان لا بدَّ أن تجبرهم على الإسلام، أو تضع سياسةً لذلك. يقول: «الصرب بيننا وبين كفار النمسا، فكلما طابت العلاقات بيننا ختلهم النمساويون والروس لشناء المسلمين ومناوأة السلطان، وأثاروا مكامن الحقد في نفوسهم نحو الولاة، وبعثوا الغيظ في قلوبهم ضد الإسلام كله، وكان كل إحسان متفضل به يقابل بالجحود، وكل عقاب مستحق يقابل بالحقد، وكل خسيسة يأتيها والٍ من الولاة تُمتطى لإثبات خبث طوية المسلمين كافةً، وكدورة سنخ هذا الدين». قال خالد: «وكيف تُجبر السلطنة الناس على الإسلام؟». قال إرتورك: «بأن تخطط لذلك، كما خطط آل هابسبرج والروس لزرع الضِّعة الصليبية، إلا إننا لا نُخطط لشيء فوق الخمس سنوات!».

قال أحد المرافقين: «أهلكتنا الفتن بيننا، كيف يُخطط سلطان وعرشه هواء؟ إن غضبة أحقر انكشاري أو أخس موظف قد تهز أركان البلاد!».

سألهم خالد: «أيظلّ الحال كذلك أبدًا؟».

فقال إرتورك: «نحتاج بعثًا لماضي الدولة، نحتاج إلى فاتحٍ جديد للقسطنطينية من آل عثمان».

وكان قائد الجيش العثماني يلاحق كتيبة صربية، وتحدد مكان المعركة في لوبتش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل المعركة بأيامٍ بدا إرتورك نشِطًا سعيدًا، سأله خالد والمرافقون فقال لهم باسمًا مستبشرًا: «رأيت في نومي بعد قيام الليل أن سماء لوبيتش ضاءت بعد حلكة، وغمرني شعور براحة لم أختبرها من قبل، فكنت كأني القمر المُنير بساح المعركة». قال بعض الجند: «إنها بشرى بالنصر». وقال آخرون: «ولعلٍ ذكرك يرتفع في تلك المعركة، فتحظى عند السلطان». وَحْدُه خالد من ظلَّ باسمًا بلا تعليق، فقد حذره أهل قاضي زاده من حكايات الصوفية ورؤاهم، وقالوا له يومًا: «ما من معركة ذهب إليها جيشنا إلا وتواترت الرؤى أنَّا منصورون، وتتالت علينا البشائر بركوب ظهر الكافرين، وزار الرسولُ كبار المتصوفة يقظةً ونومًا ليعلمهم بالفلج، ثم ينكسر الناس ولا يتعلمون!».

ثم بدأت المعارك والمسلمون أدنى للنصر، وكانت مجموعة إرتورك كلها من سلاح الفرسان، وكان خالد قد تمرس على القتال بالبنادق راكبًا، فأحسن الكر والفر.

وقد تهيَّب رؤيةَ الصليب قبالته في البيارق والرايات الصربية، وغمره للمرة الأولى في حياته شعورٌ عجيب بالحمية لرايته، والغضب الخالص على خصومه، والحماسة في قتلهم، فصار كالزوبعة بين الصرب، وكان من العجيب أن يتوقد حماس إرتورك من تقحُّم خالد وُمداعسته، إذ إن الباقين كانوا يقاتلون ما اعتادوه، بينما يقاتل الجهني ما لم يعتده.

وكان يُكبِّر ويهلل طوال المعركة التي احتدمت، وطاف بذهنه صورة قرأ وسمع عنها ولم يشهدها قبل اليوم، فيها يقاتل خالد بن الوليد ضد الروم وأعداء الملة، فأقسم إنْ نصره الله ألا يترك ذلك أبدًا.

أما إرتورك فضاقت أنفاسه، إلا إنه استمر يقاتل كالليث الضاري، ثم لحظ أن البصر يتشوشُ بين الغبار والدم والسباب المتبادل والتكبيرات العالية، وكان يعرفُ معنى ذلك، فنظر إلى قميصه ليجده غارقا في الدم، وهرول إليه أحد فرسانه يهتف بالآخرين، وقد أراد أن ينهرَه ويأمره بالاستمرار فيما هو فيه، إلا إنه لم يقوَ على ذلك، فسقط مغشيًّا عليه، واحتمله الفرسان إلى خارج

ـَ

المعمعة، بينما ظل خالد منشغلًا لا يرى ولا يسمع سوى ضجيج المتلاحمين، وهدير مدافعهم.

وقد حمل عليهم الصرب حملة كبرى، فدهمه تفكك الصفوف، وكثر القتلى من المسلمين، ونادى على خالد زملاؤه أن يتراجع، فلم يرضَ، واستمر يهلل ويُكبِّر ويضرب، حتى أصيب بطلقةٍ أفقدته الوعي، وأسقطته من فوق حصانه، وانهزم العثمانيون وانسحبوا من أرض المعركة.

وفي المعسكر العثماني سألهم إرتورك: «أضاءت السماء؟».

لم يُجبه أحدٌ، وبكى بعضهم، بينما قال أكبر المقربين له متماسكًا: نعم؛ انتصرنا ولله الحمد!

سعل دمًا:

- من مات؟

= استشهد يزيد وخالد.

فأغمض عينيه وهو يقول مبتسمًا: لعلي ألحق بهما مع الرسول، نصرنا ملته ورفعنا رايته. ثم فاضت روحه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفاق خالد ليجد نفسه في مكانٍ معتمٍ عفن، فيه بصيص من ضوءٍ مجهول مصدره.

كان العشرات من المسلمين الأسرى يحيطون به، سألهم فأجابوه أن الصرب أودعوهم جميعًا في سجن بقبو داخل إحدى القلاع، والأكيد أنهم سيفاوضون العثمانيين على مقايضتهم بأسرى الصرب من معارك أخرى، والدليل أنهم حفظوا حياتهم وضمدوا جراحات المصابين.

تعجب خالد من حظه، واقعة في المدينة يؤسر فيها بعد حصار في قلعة، ونازلة في لوبيتش يؤسر فيها ويسجن في قلعة!

كان يتضور جوعًا وظمأً، لكن كيف يتكلم في الزحام؟ وقد زمجر باقي الجند مع اليوم التالي وهم ينادون الآسرين.

أحضروا لنا الماء! أين أنتم؟ يا بك! أين أنت؟ أيها الكلاب! أحضروا لنا الماء والطعام!

لم يُجِب أحد. وزحف خالد إلى جدار مُبتْلٍّ رطبٍ، وأراح ظهره عليه. كان يبتسم سخريًّا من داخله، وإن كان لا يدري أظهر ذاك على وجهه أم لا. قال لنفسه: «لو علموا ما رأيت لربما قتلوني تطيُّرًا!».

وأكل بعض الجند الفئران وتقاتلوا عليها مع اليوم الثالث، حتى صارت الحشرات مطمعًا، لا أحد يأبه لهم ولا يسأل عنهم، في اليوم الخامس كان صياح الجند قد انتهى، واستلقى الكل على الأرض، بين القيء والبراز والسوائل.

قال بعض الجند في اليوم الخامس والكل متكتل فوق بعضه: «لن يجرؤ الصرب على قتلنا.. لمَ عالجونا؟!». لكن لم يجبه أحد. الكل بين ميتٍ ومحتضر، وشعر خالد بدنو الأجل، لقد تركهم الصرب ورحلوا، عالجوهم كي يموتوا معذبين تلك الميتة الشنيعة، أراد أن يجيب السائل لكن ما الفائدة؟ ثم أين القوة التي يقدر بها على فتح فِيهِ. وبينما يحاول أن يتمتم بالقرآن، ووعيه يتسرب منه، ظهر بعض الجند الصرب في أعلى الدرج المشرف على القبو وهم يحملون المشاعل. تضاحكوا من المشهد حينًا، ثم غادروا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث: مجالس شامية

[حلب 1813]

دُهِش نور ببهاء حلب كما جرى معه في دمشق، ولم يمكث إلا قليلًا قبل أن يجد شيخه في حلقة علم صغيرة، وهاله غزو المشيب لحيته، وأشرق وجه الشيخ برؤيته، واستقبله في داره، وسأله عن أحوال البلاد، وأحواله هو، ورُوي له كل شيء، فاغتم وقال: «لم أكن أظن الحال يصل إلى هذا، السلطنة ضعيفة ومنشغلة بكفار أوروبة، وغلب على ظني أن الأحوال ستستقر لأهلنا وإن لم أرضَ فعالهم، وسيرتضي الجانبان قسمة السيادة؛ غير أن والي مصر معروف بالبأس، ولعله هو مَن ذعر السلطنة وحمَّس الشر فيها». قال نور: «أحسبهم سيتوجهون إلى مكة ثم ينقطع حراكهم، وستحتشد الأجياش في نجد للغزو مرة تلو الأخرى، حتى يخرج الترك منها، إلا أن خشيتي ليست منهم، إنما مما رأيته من مناصرة جمهرة العرب إياهم، وأخشى أن يضطر الإمام لترك الحجاز لهم». قال الشيخ: «سيضطر والي مصر للمهادنة، وأحسبُنا سنرى في نهاية العام سلمًا بين السلطان والإمام، وإنهاءً للحرب، فوالي مصر ومن ورائه السلطنة يعلمون أن نجد لم يخرقها سيفٌ قبل اليوم، وهي لا تمثل لهم ولا للمسلمين ما يحفزهم على دخول تلك البوادي والأنحاء التي نحن بها أخبر، وبدروبها وأسرارها أعلم، وبلادنا شاسعة لا نهاية لها، وقبائلها بالإمام والدولة راضية».

ثم سأله عن أحواله بعد محنة القلعة، فقال له نور: «تائه، لم أقوَ على الرجوع إلى نجد مهزومًا مدحورًا، واستوحشت نفسي، إذ بان لي ضعفي وهزالي، وتجلى لي أنني فسل نفَّقه عدم بِرازه الأبطال، ثم بلبل خاطري ما رأيته من الترك، فشهدت فيهم من الفساق والفجار ما ثبت قلبي أننا على الحق، وهم الكثرة الغالبة، وشهدت فيهم من الصالحين الأفذاذ النادرين ما ارتج له فؤادي، فصرتُ كلما ارتحت إلى وجهةٍ شَغِبَتْ عليَّ الأخرى، ولا أنزع عن نفسي إلا وقد انتصرت نفسي على نفسي، أما جسدي فكان هو الراسخ الأوحد، إذ تحرك إليك يطلبك حثيثًا وإن لم أفهم العلة. فقال له الشيخ: «أتريد العلم أم العمل؟». قال: «إنما أتيتك لأنك نشأتني على العلم والعمل كليهما، وهما مزيجٌ في ملتنا، ولو كنت أطلب العملَ وحده لرجعتُ إلى جند الإمام، وانشغلت بالمقتلة، إلا أن نفسي قد طاشت، وارتبت في علمي، فهمِد عملي إلى أن يأتيني اليقين». قال له: «قد عرض عليك التركي أن تصحبه إلى أوروبة، فتقاتل طغاة الكفر الواضح، وهذا ما نشأتك عليه؛ فلِمَ رفضت صحبته؟». فقال: «في جند الترك نزقٌ وسفول أخلاق، وقلة ديانة ومروءة، وهم جمعٌ متنافر من الأشكال والألوان، كالبحر الهائج يضرب بعضه بعضًا، والعربي بينهم ضائعٌ، فلا ذكر لنا ولا ثقة فينا، وهم مرتابون يأخذون بالظنة،

والسيف عندهم أقرب من التثبت». تبسم الشيخ وقال: «أين اختلطت بهم لمعرفة كل هذا؟ إنما تردد حكايا وأخبار العرب عنهم، غير أني لا أكذب قولك تمامًا، ففيهم مثل ما قلت وأكثر، لكن الواقع أفضل من ذلك التصوير النَّكِد، ولو علمت ما يقولونه عن العرب وجهلهم، ورخص أثمانهم مقابل الغدر ببعضهم بعضًا، وقلة وفائهم؛ لأنكرت وفي قلبك غصة، لا من إفك القول، إنما من موقفه العجيب بين الحق والباطل؛ فهذه هي دنيانا يا ولدي».

وجهز له مكانًا في بيته، وأخبره عن حاله منذ أتى الشام، فقد نزل على أحد أشياخ الحنابلة المعروفين، وكان من طُلابه المُحبين، ولكنه لم يرتحْ في دمشق، فسلطان الحنابلة بها ضعيفٌ، وكانوا يُرمون بالبدعة من الشافعية وغيرهم، ولم يخلُ البلد يومًا من نزاعات وتضييق عليهم، ورمي لهم ولابن تيمية بالباطل؛ فأرسله شيخه إلى حلب، وتولى تعليم جماعة من الطلاب، وتزوج فيها واستقر، وكان يرجو العيش في مكة يومًا، وانتظر إلى أن تستقر الأحوال، لكن الأنواء تكاثرت في سماء الحجاز، وأرجأ حلمه في مجاورة بيت الله إلى أن يجف نهر الدماء. واقترح على نور أن يبقى إلى حين، ويتزود من العقيدة بما يطمئن باله، ويعيد بناء ما تهدم فيه، فرضي واستقر.

في زمن قصيرٍ بز أحسن الطلاب، واجتهد في الدرس وقراءة المتون من أفرع الشريعة كافةً، ولم تنقضِ أشهر قليلة حتى عزت مكانته في حلبٍ، وانتبه لنفسه يومًا وهو يبسط الحديث بلا عائق، ويسيل من فمه الكلام سيلًا، ففرح به أشياخُه ضِعْفَي فرحته، وعدُّوا ذلك علامةً من الله على أن لسانه قد فُتِقَ لمهمة جليلة.

قال يومًا لشيخه: «أنت أقرب لنجد من الشام، ونجد أقرب للسنة من الشام، فعلام كان رحيلك؟» فتنهد ثم قال: «إعمال السيف في الناس، ذاك ما جعلني أرحل، أنا لم أُنكِر الاعتقاد، إنما أنكرت فشوّ الصبر على الغالية، وقد كرهت هذا ونبذته، ولم أكن أدري ما أصنع، ثم رعِدت سماء البلد بوشايةٍ هرولتُ على إثْرها خارجًا». قال مُنكِرا: «إذن نبقى هنا أبدًا؟». قال: «أرى فيك اجتهادًا محمودًا، وأنا أعرفك منذ الصغر، فإذا أقمت هنا أحسب أن الله مُعِزٌّ بك أهل السنة، وهذا ليس رأيي منفردًا، بل رأي جمهرة أشياخك، ولعلنا نشهد علوَّ نجمك في سماء حلب قبل أن تمضي أعوام ثلاثة، فتقاتل في ساح الجدل والمناظرة، وتكون قد جمعتَ العلم بالعمل، فتفلج بإذن الله». فهز نور رأسه وأطرق قليلًا، ثم قال: «ليس هذا ما أريد إفناء زهرة شبابي فيه، وما أتزود من العلم هنا إلا شدًّا لأزري في ساحات قتال أعداء الله».

وقد أفلح مسعى أشياخه في نصرته، ولم ينغص عليه عيشه هو وجمهرة الحنابلة إلا أخبار الحملة المصرية، فبعد رجوع مكة إلى العثمانيين لم يكتفِ طوسون ابن والي مصر بما حققه، واشتبك مع جنود الإمام في كل موضع

بالحجاز، واشتد انقلاب القبائل على بعضها بعضًا، بل صارت القبيلة الواحدة مختلفة المشارب والأهواء، ثم انهزمت العساكر الرومية في موقعة كبيرة بأحد الوديان، ثم في تربة والحناكية، ورأى بعضهم أن هذه هي بداية إنهاء حملة طوسون، خاصة أن مرويات الواقعة أجمعت على فداحة مصاب الترك، وتلت ذلك معارك أخرى أصغر شأنًا، لكنها بيَّنت خفوتَ نجم الروم، وكان نور قد انقبض قلبه من أخبار الرزايا التي أصابت عسكر الأعداء؛ من الجوع والمرض والبلاء والأوجاع، وحادث شيخه في هذا فحمد مشاعره تلك، وبيَّنَ له أن هذا هو حق الملة، وأنه لا يقلُّ عنه غضبًا وحزنًا، وكانا يرجوان من الله أن تصدق التوقعات، بأن يكتفي السلطان وولاة مصر والإمام من ذلك التخريب المتبادل، ويهادنان بعضهما بعضًا، فليس أمام السلطان ومصر سوى هذا، بعد تلك السنوات الطويلة من الحروب الخائبة، وفشل حملة مصر على الإمامة السعودية كما فشلت حملات العراق من قبل.

وجذب انتباه نور جماعة صغيرة من طلاب العلم، كانوا يتناقلون الحديث عن حرب الصليبيين في السند والهند والبحرين، ويكتالون من مديح القواسم على وجه الخصوص، وحدث شيخه في شأنهم، فقال:

- تلك مجموعة من الطلاب، يسمون أنفسهم المُكلَّفون بالجنة، ويحبون الجهاد والطلب، ويغزون في كل عامٍ مرة، وكانوا العام الماضي في اليونان، وقبله ضد الإنجليز، والعثمانيون والقواسم يرحبون بهم، ويتبرَّكون بحسن عبادتهم، ولا يؤذون إلا صرحاء الكفر.

فدُهِش نور، وأنكر على شيخه كتم خبر أولئك عنه كل هذا الوقت، وتعجب من عدم مشاركته إياهم الحروب وهم يحققون حلمه حرفًا بحرف، فتفرَّس الشيخ في وجهه برهةً، ثم قال:

- أولئك حالهم أخفى مما يظهر لك، ولعلك إن عرفت دواخلهم تصدُر راغبًا عنهم!

= ما شأنهم؟

- لا يعملون إلا تحت راية سلطان، ويشارطون الداخل إليهم الولاء التام للإمام العاملين تحته، فحين تكون في اليونان فأنت أطوع الجند للسلطان، وحين تكون في البحرين فأنت أمثل الجمع لأمير البلد، ويُحرمون الاشتغال بالعقيدة في أوقات العمل بالجهاد، ويشتطون في ذلك الرفض حتى رميناهم بالابتداع، وقد حدَّثتهم في ذلك، وقلت العقيدة لحم الجهاد ودمه، ولا يُمكن فصلها عنه، فقالوا العقيدة في القلب، وإثارتها في وقت الملاحم فتنةٌ، فنفرت من منطقهم، وجفلوا من إلحاحي، ولو كنتُ ممن يطيقون مجاراة الناس ما رحلت من بلدي وأهلي.

= أما أنا يا شيخي فجاهز لكل ما يقولون، وطرائق عيشهم أَلْيَقُ بي مما أنا فيه، فتكون حياتي بين الثغور والمساجد.

سعى نور للامتزاج بهم، ولم يكن أقرب له من شابين، أحدهما فارسي اسمه الحسين الأصفهاني، والآخر من تهرت واسمه أنس الزناتي، وألَّف بينهم تماثلُ السن وتوافقُ الآراء في المشايخ، وقد دعاه أولهما للدخول في الجماعة، وأخبره بأنهم ينتوون الذهاب إلى القواسم، والانضمام إلى حملاتهم البحرية ضد مراكب الإنجليز، وعمائرهم الغاصبة لبحر العرب، فتوثَّب نور للذهاب معهم، والتعرف إلى حياةٍ جديدة، لكنهم طالبوه بالصبر إلى أن يأمرهم القادات بالتحرك، إذ لابد أن يُحصِّلوا قدرًا معينًا من العلم لأشهر معدودة، فيحرصون على ذلك ولا يتنازلون عنه.

ثم أتَتْهُم الأخبار بنزول محمد علي باشة مصر إلى الحجاز، وأرعدت السماوات في قلوب شباب نجد الدارسين العلم، وفزع كثيرٌ منهم إلى أهله، واجتمع بشيخه وقد تقلقل كل ما فكر فيه، واختلج صوته وهو يسأله ماذا يفعل، قال شيخه:

- نزول باشة مصر بنفسه بلاء عظيم، وهو معروفٌ بالفُجرِ والمكر والكيد والغدر، حتى إن السلطان يصانعه ويخشاه، ووالله لا أظن قد نزلت ببلادنا زلزلةٌ أكبر منه منذ قرون.

فازداد نور فرقًا.

= ألحق بأهلي وأخي، وإن كنتُ لا أظن الرجل يجترئ على التوغل إلى قلب بلادنا، لكنني أحسبه لن ينزع عنا إلا وقد صنع مقتلة عظيمة، وقتالي ضده حينئذ سيكون لدفع بغيِه عن المسلمين، لا مشاركةً في فتنة.

- نعم! وأوصيك ببقية أهلي هناك، ولولا أنهم أرسلوا في طلبي، وقتلوا بالفعل أحد تلامذتي، كنت رافقتك، وإياك وإبلاغهم بنزولك عندي.

وأبلغ الحسين وأنس، وكانوا قد اتفقوا على المسير إلى القواسم والشركة في القتال معهم، فحاولا ثنيَه عن عزمه، وحذَّراه من أن معرفة مجموعة المكلفين بذلك قد تعيق قبولَهم له، فهم يمنعون الشركة في فتن المسلمين، لكن لما وجداه لا يستجيب من الجزع، طلبا منه أن يكتمَ ما ينتويه من المشاركة في الحرب، وليخبر الناس أنه ذاهبٌ للاطمئنان على أهله، وأخبراه بمكان نزولهم على القواسم، وفارق الشامَ مبلبلَ الخاطر، تموج الأفكار في مستقبله ونواياه.

الشيخ فهد القصيمي

لم ترحِّبْ دمشق بالشيخ فهد عندما وصلها، وقد قابله حنابلتها القلة، وعرَّفوه بأن تلك الديار تكاد تخلُص للشافعية في هذا الزمان، وأن مشاكلَ نجد زادت المضايقات لهم، لكن عليه أن يصبر ويتحمل، إذ قد انغلقت عليه أبواب الرجعة إلى بلده، فسأل من الله الصبر، وانهمك في الحضور لأشياخه، ومتابعة الآخرين من المذاهب كافَّةً.

كانت سيرة الشيخين أبي عبد الرحمن الحمصي، وأبي عبد الله اليماني، المُنشَّأين في الأصول وفقه المذاهب، والمُعترف بفضلهما ونبوغهما من الخصم قبل الحبيب، من أهم دوافع فهد كي يلازم مجالسهما، فكانت حياته بين أشياخه وهذين، وقد حضر في المنطق دروسًا، إذ يكثر استخدام الشيخ الحمصي لمصطلحاته، فلم يألفْه، واشمأزَّت منه نفسه، وكان كلما اجتهد فيه زاد نفوره منه، وسأل أحد أشياخه الحنابلة عما يفعل فقال له: «هو من المهمات كي تفهم أشياخك ما دمت قد اخترت الطلب في كل العلوم والمذاهب، فبعض الشافعية والأصوليين لا يختارون إلا مصطلحاته وألفاظه في شروحهم، وإن تيسر اللفظ الأفصح والأبين». وحاول فهد الانغماسَ، فكان كلما تعمق فيه انقطعت أنفاسه، كالنازل في بحر وهو يزفر كل ما في صدره، حتى انقطع عن دروسه، وقنع بفوات بعض ما يقوله الأشياخ، بعد الاجتهاد فيه وسعه، وبذل إطاقه لفهمِه.

ثم لاحظ الشيخُ أبي عبد الله اليماني حضورَه، فعلى الرغم من حلقته العامرة إلا إنه كان أشد الناس مواظبة، وأشدهم مزاحمةً للجلوس في الصفوف الأولى، فسأله عن هويته فعرفه، وذكر أنه من نجد، فتغير وجه الشيخ، وانقبضت أساريره، ورجع بنظره إلى الكتاب لحظةً، ثم غمغم بصوت خفيض: «فهد الحنبلي النجدي!»، ثم رفع بصره يقول مظهرًا الترحاب، وإن كانت تشي لهجته بتهكمٍ: «حيهلا بالغزاة الوهابية!»، فارتبك فهد وسط الضحكات المحيطة به، وشعرَ كأنما عاد إلى الصبا وتهكُّم الأشياخ، فحقد على الشيخ أنْ لم يحترم سنَّه، وقصده إضحاك الصبيان، فقام من مكانه، وكان يتوقع أن ينادي الشيخ عليه ويعتذر، إلا إنه لم يأبَهْ به، ورحل عنه مكلوم الفؤاد، وأخبر الأشياخ فغضب بعضهم، وقالوا سنحدثه، فتلك إهانة لنا جميعًا، بينما قال له بعضهم الآخر: «الزم أشياخك تنجُ من المعتدين! ستجد مثل هذا كثيرًا ها هنا في تلك الأيام، فأنباء الانكسارات أمام النجديين لها معانٍ كثيرة عند أشياخ المذاهب». وقرر فهد الاكتفاء بالحضور عند الشيخ الحمصي، وهو البحر الواسع في أصول الفقه، فلا يُفوَّت. إلا إنه لحظ أن الشيخ يغمز في ابن تيمية والحنابلة المرة تلو الأخرى، ولم يكن هذا صنيعه من قبل، ففهم أن الطلاب قد أبلغوه، أو ربما صنع ذلك الشيخ أبو عبد الله اليماني نفسه، لكنه صبر على الطعن الذي لم يعد يخلو منه درسٌ، وقال له أشياخه أن الرجل يرغب في طرده، ودلوه على شيخ آخر أكثر رحمةً بالمخالفين، وهو أبو الحسين

القرشي، الثاني في الرتبة بالأصول بعد الحمصي، فاضطر فهد لهجره، والحضور إلى القرشي، ووجده رجلًا سمحًا متعففًا متأدبًا، يصعب على الإنسان ألا يؤسر بحسن أخلاقه ورقة حاشيته، إلا أنه كان على الرغم من تمكنه من مادة الأصول يَفتقد إلى الموسوعية التي عند الحمصي، فالحكاية والخروج لخاطرة عند الحمصي هي درس أدبي أو إنساني مستقل، وكان يملك قدرة عجيبة على ربط كل حادثة في الحياة بتدبرٍ شرعي مذهل، وقال فهد لنفسه متأسفًا: «ما أصنع فيمن أودهم ولا يطيقونني؟!». وجاءت أحيان كان يشتاق فيها إلى مجلسه، فتغضب نفسه ويهتف: «سأختصمه أمام الله بأن حرم العلم مستحقه!».

ولم يكن كل حنابلة الشام يتسامحون مع مذهبه، فقد رأى للمرة الأولى حنابلة متصوفين، فضاقت دائرة من أخذ على أيديهم، ولم يمر وقت طويل قبل أن يقدموه إلى طلابهم، إذ كان فهد مبرزًا قبل المجيء، لكنه لم يكن يتعجل على نفسه التصدر، وكان يرهب الشام وعلماءها، ووثق به الطلابُ وأهل العلم خلال عامين، وبعث إلى أهله يرغب في الزواج منهم، فأرسلوا له ابنةَ عمه برفقة بعض أهله وأهلها، وكانوا من أحسن الناس أخلاقًا، فتزوجها وأنجب منها ابنة، ولم تخلُ ساحته من الإحن والخصومات التي يُبتلى بها أهل العلم، وقد حدث أن قاربه أحدُ بكوات الدولة، فوجد غضبةً من الوسط العلمي، وطعنًا في علمه وأهليته، ولم يجد علاجًا لغمِّ نفسه سوى الرحيل إلى حلب، وقد كانت أهدأ فورانًا من دمشق، فاستقر بها مُعلِّمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الشيخُ عماد الدين البخاري أقرب الناس إليه في حلب، وكذا الشيخ أبو محمد السهيلي، وقد كانوا كالأشقاء، وظهر للجميع اتفاقهم في مسائل الأصول كافةً، وتوافقهم على أغلب الفروع، وكان في البخاري حدةٌ في مناقشاته لخصومه، وحمد فهد له تلك الخصلة المُرهِبة لأصحاب المذاهب كافة، أما السهيلي فكان شغوفًا بالعلوم لا يكاد يمضي يوم دون اطلاع واسع على جديد من الشؤون والعلوم، ومن الأول تجرأ قلب فهد على المناظرة، وكان يخشاها قبلًا، رهبةً من تفوُّق الشاميين، إلا أنه قد انتبه أن أكثر الانتصار في المناظرات راجعٌ لقوة شخصية المُناظِر، واستحضاره للرد المسكت بسرعة، وإن لم يكن هذا الرد حقًّا في ذاته، فتعلم من البخاري كيف لا يرهب أحدًا، وأن يلقم الجميع حجرًا تلو الحجر، ومن الثاني شغف قلبه بالاطلاع الواسع، فلم يعد يكتفي بعلم من العلوم، حتى طالع المنطق مرة أخرى، واجتهد فيه اجتهادًا لم يصنعه في حياته، لكنه لم يصل فيه إلى طائل، فتركه مرغمًا للمرة الثانية، وقال له السهيلي باسمًا: «للسيوطي قاموس العلوم كلام يشبه ما تقول، كان يكره المنطق ولا يفهمه، فلا تبتئس، لست أول من يضيق صدره به». فتشجع وانتقل إلى غيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعد فهد يعرفُ ما يصنع! زوجُه إنسانة طيبة، تحملت معه التنقل والتبدل، وكانت خير النساء طوعًا له، إلا إنه كان يعرف من نفسه ما لا تعرف، وكان انقطاعها عنه لأيام الضرورة يصيبه بما يشبه الحُمّى، فتنكسر حدة ذهنه، ويجلس إلى الكتب لا يكاد يُبصِر شيئًا، ولم تمضِ إلا أشهر قبل أن يلحظ أصحابه تبدل حاله في أيام مقدرات، وتكرر ذلك منه، فصارحهم بأنه يجد من حب النساء ما لا يُطيقه إنسان، وقد صال على نفسه طويلًا، وظن الزواج نجاةً له، فإذ به يُعرِّفه بما كان عنه غائب، فازداد توقه للنساء، واشتياقه لهن، فكان رأي السهيلي أن يتزوج ثانية، فما هو فيه من حرارة مما يفخر به الرجال، ولا يستخفي منه إلا المخنثون، بينما كان رأي البخاري أن يقاوم نفسه، فأهل العلم الألبق بهم عدم الزواج، فإن كانت ضرورة فليكتفِ بواحدة، وكان البخاري ممن طلَّق ولم يتزوج ثانية، وانكبَّ على العبادة والعلم مردِّدًا كلام الفقهاء الذين كرهوا لمثله الزواج، ونصحوه بالتبتل، فكان السهيلي يقول له: «إياك وسماع البخاري، فليس فيه مثل ما عند الرجال، وهم يتفاوتون مقدرة وإطاقةً». ولمَّح بحاجته إلى زوجته، فغضبت وثارت، وذكَّرته بأنها تركت بلدها في نجد ولحقت به، وقرَّعته على استبطان الغدر، ولامته على سوء المعشر، فلم يجد بُدًّا من أن يرقَّ لحزنها، ويعدها ألا يفعل، وإن ثار في نفسه نزاع كبير، إذ خشي أن تُطلِّق منه فترحل بولده إلى حيث لا يقدر على الذهاب، وأشفق على نفسه كذلك أن وعد بما يزيده ألمًا وعذابًا، وصمتت هي على مضض، فلا الحياة عادت إلى صفوها، ولا هو خلُص من كدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السهيلي أول من شرع في التبدل خلال سنوات قليلة، بعدما نُكِبت الدرعية، فانقطع حينًا عن مجالسة إخوانه، ولما ذهبوا إليه يطمئنون على أحواله اعتذر لهم بأنه منشغل الفكر بمسائل كبار، ولم يظفروا منه بشفاء للغليل، إلا أن طلابه أبلغوا أشياخهم أنه صار يشرد في دروس الفقه كثيرًا، ويسأل في كل دقيق وجلي، وينتظرون منه الإجابة، فيجيب بألف جواب، ولكل واحد من الألف منطقٌ ووجه، وينتظرون منه الترجيح، فيتوقف متحيرًا! فنظر الأشياخ إلى بعضهم بعضًا قلقًا، وجاء أحد الأشياخ يومًا وهو يحوقل، قال: «الشيخ يرافق الأحناف هذه الأيام، ويصحح مذهبهم». دهمهم الخبر، فقالوا له:

- هل اكتفى بالفقه؟

= بل الاعتقاد كله! صار يندد بنا، ويصمُنا بالجهل.

فتعجبوا وصفقوا بأكفِّهم مندهشين، لكن الشيخ ناصر الدين -أكبرهم سنًّا- ابتسم كالعالِم ببواطن الأمور، وأشار بوجهه وهو يُغمض عينيه أن انسوه ولا

تهتموا به، وقال بعضهم: «كل ذاك وأكثر سيأتي».

ثم تلاه الشيخ البخاري في ذمِّ الوهابية، ولم يكن هذا بعد انقطاعٍ عن الحنابلة مثل الشيخ السهيلي، بل كان بينهم يروح ويجيء، وكان في ودٍّه للشيخ فهد كما هو، فسأله متعجبًا عما جرى، فقال له:

- إن الحنابلة برآء من مذهب الوهابية، ويجب بيان ذلك للناس كيلا يغتروا!

= يا شيخ! أنت ممن عاش بين الوهابية زمنًا، وخبرت كلَّ ما قاله رؤوسها، وقد قلت لي ولغيري قبل ذلك أن مذهبهم حنبلي أصيل، فما الذي تغير؟!

- كنت أرجو لهم الإصلاح، لكن معاندون جهلة، ولم أغيِّر كلامي، بل هم الذين ينقلونه على غير وجهه.

هنا كاد فهد يتفقّأ غيظًا وقام مغضبًا.

= والله إنك كذّاب! ولولا أني سمعت تكذيب نفسك ألف مرة لصدقت قولك!

وتسابَّا ورحل كلٌّ منهما عن صاحبه مشحونًا، وجلس فهد في بيته أيامًا لا يخرج إلا للصلاة متخفيًا، يختار المساجد النائية كيلا يقابل أيًّا ممن يعرفه، ثم جاءه لفيفٌ من أصحابه، وجعلوا يواسونه ويحذرونه، قالوا له إن الشيخ البخاري يطعن فيه، ويُذعِّر عليه أصحاب الشأن في الدولة، ويقول لهم إنك وهابي يدعو لمذهبه، فازداد فهد ألمًا، ونصحوه بأن يذهب إليه ويسترضيه كيلا ينقلب الحال إلى نكبة كبرى للحنابلة في حلب، ويكفيهم ما هم فيه من شر حال، لكن فهد قال حازمًا لا يطرف: «والله لو ذبحوني ما اعتذرت له، فضحه الله الكاذب المفتري». ثمّ استدعاه أمير حلب بالفعل، وذهب إليه، ووجده رجلًا لطيفًا، قال له:

- أنا أعلم قدر العلماء، وأعلم خبَث السياسة، ولا تظنني آخذ بالظنة والشبهة.

= وإن كنت أدعو للوهابية كما قال المفترون، أيسوءُك ذلك يا سيدي؟ قد دالت دولتهم وانتهى ذكرهم، ونكل بهم من لا يخشى الله، فما النكاية من مثلي؟

- أنا لا أرضى الظلم والبغي، والوهابية بغاة، وباشة مصر باغٍ، ولكنني لن أضايقك ما دمت لا تذعر علينا الناس، ولا تزيد دعوتك عن بضع تلامذة.

رد كسير الفؤاد:

= لا تقلق من ذلك، ولست أنا بداعية أحد، وقد طردني أهل نجد قديمًا لأني لست وهابيًّا حق الوهابية!

تقلص عدد تلامذته يومًا تلو الآخر، وعلم أن السهيلي والبخاري يفشون كل حرف قاله لهما في المجالس، ويضيفون إليه حميم الباطل وكدورات الأوهام مدلسين، أما باقي الأشياخ فكانوا بين صامت يخشى التعاطف الظاهر معه، خشية من سطوة تحالف البخاري والسهيلي مع باقي أشياخ المذاهب، وأثرهم في الإمارة، ومدافع عنه ضعيف لا نكاية لكلامه، فأصابه إعياء شديد، ونحل جسده، وانقطع عن الدرس، وظل زمنًا على ذلك الحال، وشاب شعره، وبدا كما لو أنه قد زاد عقدين من العمر، وأنكره كثيرٌ ممن كان يعرفه، وطلب من أهله الرحيل إلى القدس، فكان ما أراد، ولزم أحد المواضع فيه يتعبد، معتزلًا كل شيء، حتى ضجرت زوجه من هجرانه، ورحلت عنه هي وولده، ولم يأبه لشيء، وانهمك الوقت بطوله في الصلاة والعبادة وتنظيف المسجد، وعدَّه الناس رجلًا مباركًا، ولم يكن الجميع يعرف أنه قادر على النطق، إذ ظنوه من الخرسى المجذوبين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع: خليج القواسم

لم يكد نور يصل بلده حتى أمسك به الجند قبل أن يلتقي أهلَه، وأُودِع الحبس، وقد عجب مما يجري له، فقد كان الجند يزجرونه ويتهمونه بالخيانة، ولقي منهم الضرب والإهانة، وكلما حاول أن يفهم ازدادوا معه غلظةً.

أتاه أخوه بعد ساعة مهرولًا، ظنه سيشهق فزعًا من صورة رأسه المشجوجة وحاله السيئة، لكنه فوجئ بحمده الله أن ظل حيًّا! أنكر غاضبًا: «لِمَ؟ ماذا صنعت؟» أخبره أخوه بما نقله عنه الجند العائد من معركة المدينة، إذ قالوا باتفاقه هو وحرس القلعة مع الترك، ودليل ذلك أنهم انتقلوا مع قائد تركي بمجرد انتهاء الحصار، وظهور النعمة عليهم، ثم رحيلهم معه إلى بلاد الروم!

شهق نور فزعًا وحوقل، كان مصدومًا من غفلته أكثر من الفرية، إذ لم يتفطن أبدًا إلى بداهة ذاك الاستنتاج، سأله أخوه في قلق وإشفاق: «أليس كذبا ما يقولون يا ابن أمي؟!». كان نور مطرقا يهز رأسه يمنة ويُسرة بلا رد، ارتعد قلب سالم، وتحجرت دمعة في عينيه، فكرر سؤاله متهدجَ الصوت، انتبه نور إليه فرفع رأسه هاتفًا في حزم وغضب: «إياك وتصديق المفترين! إياك وإفك الجاهلين!».

جاء القاضي في اليوم الثاني، افتتح كلامه ببيان إثم موالاة الكافرين، والحكم الشرعي فيمن يدل على الوهن في أجياش المسلمين، فتحدث نور وكذَّب كل ما قيل، وجيء ببعض مَن زاملوه في المدينة والحصار، فشهدوا أنه قد أُبعِد من القلعة للودِّ الذي كان بين التركي وإياه، وأنهما غادرا معًا بعد الحصار، وقد رآه الناس قبل رحيله متنعمًا يعيش مع الأعداء في خيامهم الباذخة، فحكى نور كل شيء، وأقسم بالله أن ذلك هو الصدق، وقال مغتاظًا:

= كيف أتفق مع الترك ثم أذهب لأُحاصر في القلعة، وأعيش معكم بين ناب الموت كل هذا الوقت؟

- ولمَ ذهبت إلى الشام؟

= كي ألتقي بالشيخ فهد القصيمي، وتعلمون أن كان بيني وبينه ود، وأنني تأدبت على يديه، وأقول هذا وأنا عالم بمغبة تصريحي هذا، للملاحاة بينكم، لكنني لا أكذب، وتعلمون مروءتي، وسأدلكم على بعض طلبة العلم في الدرعية ممن كانوا معي في حلب، يروون لكم كيف كُنا عونًا لكم لا عليكم، ويقطعون دابر المفترين.

رفع القاضي شأنه إلى الأمير، وذهب إليه نور، فأعاد القول، وكان الأمير ليِّنًا هيِّنًا، قال له:

- لسنا الآخذين بالظنون والأوهام، ورأينا في المعارك أمتن من هذا في الشُّبهة، وكان الحق فيها مع المشتبه به المظلوم، لكن يا نور إعادتك للقتال أمر عسير، فمذهب الجند الهوى، ومبنى أحكامهم الظِّنة، وليس بمقدور أمير أو إمام ضبط ذلك أو استبيانه، بل وبقاؤك ها هنا ليس بالمأمون، فالثُّكل في كل منازل نجد قائمٌ لم يزل، ولن يُسلِّم مفطور الفؤاد بما رضيتُ بصحته، وقد انتبهتُ في حكايتك لرغبتك القتال مع القواسم، وهم حلفاؤنا وعلى مذهبنا ويعملون لحساب الإمام، ومُكثك فيهم أحسن لك ولنا، فالوارد إلينا من الجهاد ضد الكفار في البحر خير معين على قتال الترك والمصريين، وفي القواسم نجدة باسلة، وضيافة باذخة، فأظنك ستحبهم ويحبونك.

حفظ نور تلك الأخلاق الفاتنة للأمير، وغمر الإحسان قلبه مطفئًا تغيُّظ الظلم، وسكن فؤاده بالنصيحة العاقلة، فوافق ورضي، على أن يُمهل أيامًا يقضيها مع أخيه، الذي كان قد تزوج وأنجب، وقضى معه حينًا حكى له فيه دقائق ما مر به، ووصف أحواله، وعجب سالم من اضطراب أخيه، وهو عنده المُقبِل الحازم، وقال:

- لم نعرف كل ما حدث في المدينة، فليس كل شيء يُقال، لكنهم يصورون لنا الترك ها هنا شياطين خبيثة لا رحمة فيها، ومع ذلك تتبلبل أفكارنا إذ يصورونهم في ذات الوقت جموعًا من الجبناء، والمرويُّ عن مخازي المعارك في الحجاز قليل، أتحسب الإمام يُهزم؟

= هو يحارب ووراءه البحر، وهم يحاربون ووراءهم الروم، وهو يغترف الجند والمال من صحراء مُعدَمة، وهم يغترفون الجند والمال من جنان وأنهار وأراضٍ تنبض بالبشر، فأين البشرى؟!

- ولكن الحق معنا، والله ناصرنا.

ضحك نور، ثم صمت وأرجع ظهره وهو ينظر إلى أخيه برهة دون تعليق، ثم قال:

= نعم؛ الله ناصر صاحب الحق.. والعُدَّة!

وعرض على سالم الرحيل معه، فالديار مُخوِّفة، فقال:

- سأبقى ها هنا أنا وولدي، فإن رأيت الغمام النكد في الأفق أسرعت إليك، وأخبرني إن غيرت محل إقامتك. ألن تتزوج؟

= في هذه الدنيا؟ اللهم لا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزل نور عند القواسم في رأس الخيمة، وكان قد عجب من النشاط الذي غمر روحه يوم رأى البحر، ودهش من هواء مذاقه الحياة، وقال لنفسه: ويحك يا نور! أين غاب هذا عنك؟ أي إبداع في خلق الله أكبر من هذا الجمال؟ أي روعة توجد في الدنيا أجمل من تحلية الصفرة بالأزرق؟

وقد أحسنوا ضيافته كطالب للعلم، والتقى بالأشياخ، وخشي أن يسمي رائده فهد القصيمي في البداية، مخافة أن يُذعِّر عليه الناس، إلا أن ترحابهم جسَّره، فعرفوه وهشوا له وبشوا، ومدحوه وقالوا:

- خسرنا طيب أخلاق الشيخ فهد وسمو نفسه، ولولا سهولة احتدام إخواننا في نجد لكان فيهم مُبرَّزًا!

واختبروه بلطفٍ في بعض المسائل فوجدوه متينًا، وقال الشيخ ناصر كبيرهم:

- أنْعِم بفتى نصَّ رأس المذهب في الشهباء!

وكانوا يحتاجون إلى متمكنٍ في الأصول فعرضوا عليه، وابتهج عندما علم باشتراك بعض أهل العلم في مغازي البحر، وأنهم لا يفصلون بين جهاد العلم وجهاد البحر، وعرف أن جماعة (المُكلَّفون بالجنة) لم يحضروا بعد، وقد سمع بهم القواسم وبحسنِ بلائهم، وموافقة الأمير على استجلابهم إليه، فسكن في منزلٍ جهزوه له يفكِّر في شأنهم، أمَا زال يحتاج إليهم بعد هذه التوفيق العجيب الذي ساقه الله إليه من بين محنة الأخذِ والعفو؟ وقرر ألا ينضم إليهم بأشراطهم المُنكَرة متى وصلوا، وأن يستمر على ما هو فيه.

عاش شهورًا طيبة يُعلِّم الطلاب حينًا، ويشترك في مجالس المُقاتِلة من القواسم حينًا، وعلِم أنهم يترصدون إحدى السفن الإنجليزية السمينة التي ستمر في البحر قادمةً إلى العراق من مومباي الهندية، وعرف كثيرًا من أساليبهم عبر الحكايا، ودربوه على البحر والسباحة، ولفت نظره حديثهم القليل المُبجِّل عن (القرصان) ومغامراته الأسطورية، واستعلم عن المقصود فعرف أنه عجوز اسمه رحمة بن جابر الجلاهمي، مرعب الإنجليز وأسد بحر العرب، ساكن قلعة الدمام حاليا، وعملاق خور حسن سابقًا. قيل له:

- الليث الذبَّاح، لا يرحم بسيفه مُنابز، ولا يرجع عنك إن طلبك ولو كنتَ في ألف عفريت من الإنس والجان! ولم نر الإنجليز يخشون أحدًا قدره، فما إن يروا سفينته (المناور) ببحارتها الثلاثمئة حتى يولولوا كالنساء، فهو لا يترك حيًّا وراءه! أما بحارته فعبيد سود أشاوس عمالقة تحسبهم مردة الشياطين!

ولم يخلُ كلامهم أبدًا من مدح أنفسهم والمفاخرة بأمرائهم، فيُباهون الناس علنًا بأنهم الأعظم جمعًا للحشود، والأشد قوة في الفتك، والأحكم حصرًا للعِدى، فمن كالقواسم، وهم يؤمنون بهذا على تقديرهم للجلاهمي، إذ على

الرغم من غزاته وسمعته، إلا أنه قد تضرر كثيرًا بعد هزيمته والسعوديين أمام تحالف سلطان مسقط وآل خليفة عليه، وطردهم له من خور حسن، قلعته الأثيرة وموطنه الذي أمَّن فيه سربه من ملاحقة الإنجليز لعقود طويلة، وحين جاءت حملة ١٨٠٩ البريطانية على القواسم، وأرضختهم للتسليم زمنًا بتدمير أكبر مراكبهم، كان هو متحصنًا مُهابا ساكن الروع في موئله!

وبان له من طلابه فتى اسمه الحسن عبد اللطيف ذكره بنفسه، يتيمًا وإن كان أعمامه يحسنون إليه، بدينًا كما كان في صغره، يشعر بأنه مُثقَّل النفس بما تنوء به العصبة، وإن كان يختلف عنه في حُسن الصورة، فأدناه منه وأحسن إليه، وجاء في ذهنه صورة شيخه فهد القصيمي وأثره الطيب في حياته، وفرح الحسن بهذه القرابة وحاول الاجتهاد، وإن اعترف نور لنفسه أحيانًا أن فيه بلادةً وسوء فهم، لكنه كان يتغلب على هذا ويقول لنفسه لعله يبزّك يومًا!

وعاش وحيدًا، وسُئل عن ذلك فأخبرهم أن طالب العلم غير التائق للزواج يُكره تزويجه، فخلوني والعلم، واحترمه الأشياخ، وقدروا اجتهاده في تحقيق مسائل الفقه وأصوله، وانصرف عن مسائل المعتقد كليةً، قائلًا: «أعرف منه ما يكفيني، وأسلم للأئمة بما فوق حاجتي».

هذا الجواب وإن لم يُرْضِ الأشياخ، إلا أنهم خلوا عنه، خاصةً بسبب احتياجهم الشديد لمُبرِّز في تلك الفَنون والعلوم التي تمرس عليها في الشام.

جاءت الساعة التي ينتظرها؛ ساعة نزول البحر والغزو فيه، فمرت عليه الرفقة التي أنس بها من المُقاتلة، وهم جنود أربعة، سلطان بن سعيد، وجابر بن سلمان، وأحمد بن راشد، وناصر بن مطر، وكانوا من خير الناس الذين عرفهم في حياته، وهم مَن علَّموه ودرَّبوه، ولم يهتد لسبب سرعة ألفته معهم سوى حديثِ رسول الله عن الأرواح المجندة، ولعل اتفاقهم جميعًا على عدم الزواج إلا في سن متأخر على غير عادات بلادهم كان من دواعي نظر الناس إليهم كمجموعة واحدة.

وكانت السفينة التي حملتهم هي الخامسة، وهي من الصغار التاليات المستخدمات في المناورة، أما الأربعة الأوائل فهي المشحونة بالجند الكثيف، فيها ما لا يقل عن مائة وخمسين في كل واحدة، وتحمل مدفَعين في كل جانب، وكان حق زملائِه أن يكونوا مع المتقدّمين، لكنهم ركبوا معه تشجيعًا له، قالوا: «سفن المناورة خفيفة وسريعة، وهي أسرع غرقًا إن وقعت في مرمى القصف!». قال ناصر ضاحكًا: «إن غرقنا نكون نحن الشؤم عليك أم أنت الشؤم علينا؟» قال جابر: «نحن من غيرنا عاداتنا وركبنا معه، فإن غرقنا فنحن السبب أن صحبناه!». رد ناصر: «بل هو من حل على تلك السفينة

للمرة الأولى فالشؤم منه!». قطعهم نور متهكمًا: «إن غرقنا -بإذن الله- لن يهتم أحد بذاك السؤال! ولعلي أكون بشيركم بالشهادة إن شاء الله!».

تحركت السفن قاصدةً السفينة الإنجليزية الهندية (إيست كوين)، وكانت مياه البحر هادئة، وقضى نور وقته يقرأ القرآن وقلبه مضطرب، فتلك معارك لم يجرب أبسط أساليبها من قبل، ومهما دُرِّب فالواقع مختلف، غير أنه كان يقول لنفسه: «لعل الخير ألا حصار ها هنا!». وكان هذا أبين سبب لقلقه.

وأثناء تسبيحه لحظ جلبةً وحركة، ونهض مستفسرًا، فاستفاق سلطان من غفوته قائلًا: «هي الآن في مرمى البصر!».

تحرك بين البحارة إلى جانب السفينة يحاول معرفة موضعها، لكنه لم ير شيئًا في أي اتجاه، قال له جابر: «لحظة ونراها، هي الآن مرئية في منظار قبطان سفينة المقدمة، وستحاول الهرب الآن، لكن سفن الإنجليز التجارية أقل في السرعة منا».

بعد برهة رآها نور نقطة سوداء في الأفق، وكانت المسافة تتضاءل باستمرار، ولم تمر ساعة إلا وقد صار قادرًا على رؤية تفاصيلها، كانت عملاقة مُهابة يزدان خشبها البني بزخارف جميلة، وتتجاوز في الحجم سفينتي المقدمة معًا. وساعد نور البحارة، ولم يكن يفهم كثيرًا من أعمالهم؛ لكنهم كانوا متوترين، وبحاجة لأي إنسان في دفع شيء أو تحريك آخر، وانتبه لتقدم سفينتهم وتحركها بعيدًا عن السفن الكبرى، كانت تتجه في دائرة واسعة للالتفاف حول الإنجليز، وسمع دويَّ مدافع ثلاثة متتالية، ثم بعد ثانيةٍ أغرقت المياه سطح السفينة، وارتفع الهتاف المتوتر بين البحارة، وقال ناصر حازمًا: «الآن لا تقطع نطق الشهادة، نحن تحت سفينتهم، وسيصبون النار علينا».

لم ينقطع دوي المدافع، وأصيبت سفينة صغرى تشابههم في مقدمتها، لكن لم تتضرر كثيرًا، وشاهد نور السفن القاسمية تبدأ الضرب هي الأخرى، وتوقفت السفن الأربعة وراءَها، بينما سدت طريقها السفن الصغرى، وجُنَّ الإنجليز، فزادوا من الضرب بالمدافع وإطلاق النار من البنادق على السفن التي تقترب رويدًا رويدًا بإصرار من الاتجاهات كافَّةً، وتعلقت أبصار نور بالجند الإنجليز، كان شغوفًا برؤية كفار أوروبة للمرة الأولى في حياته، ودُهش من أناقة ملابسهم الملونة المزخرفة التي ذكَّرته بمشهد جند الترك، ولكن ملامحهم مختلفة تمامًا عن الترك، كانوا بلا لونٍ كمرضى البرص، ومع ذلك كان فيهم أجناد سود البشرة، وظهر التوتر والغضب على المتواجدين بالسف كافةً، سواء القاسمية أم الإنجليزية.

احتموا من طلقات البارود التي مُطِروا بها، وبادلهم القواسم ضرب البنادق، واستطاع أن يقتل رجلًا منهم بطلقة في رأسه، وكان من الواضح أن الإنجليز

لن يتوسعوا في الاشتباك أكثر من هذا؛ لعدم الجدوي، وخشية الانتقام، واندفعت إحدى السفن الأربعة لتشقَّ الإنجليزية من المنتصف، فقفز إليها القواسم مكبِّرين مهللين، ولم تمر سوى دقائق قبل أن يُحيط الجميع بالسفينة من كل اتجاه، وتهدأ المدافع أخيرًا، وبارك رفاقُه لبعضهم بعضًا فرحين، لقد نجحت الغزوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رست السفن على الساحل الفارسي في بندر لنجه، وكانت حينها من أراضي القواسم، بينما احتملت إحدى السفن الطاقم الإنجليزي والهندي المأسور للتخلي عنهم في إحدى المدن الساحلية البعيدة، كانت الاحتفالات فاشية في الجميع، لكن نور وحده ظل صامتًا يبتسم دون المشاركة، كانت لديه تساؤلات كثيرة عن كنه ما صُنع، وسبب تخلية سبيل الإنجليز، وضاق من احتساب مشاركته الهزيلة تلك جهادًا، إذ كان كل ما حدث أشبه بلعب الصبيان أمام معارك الحجاز الثقيلة، وأهوالها الفادحة، أَتَرك ما هو فيه من أجل ذلك؟! لكنه لا يُنكر في الوقت ذاته أن قتل الإنجليزي، والمشاركة في إسقاط راية صليبه، وأسر أجناده؛ ولَّد من المشاعر ما لم يختبره قبل اليوم، هنا راية التوحيد أمام راية الصليب، لا ضباب ولا صخب ولا تأثيم نفس.

ولحظ أصحابه سكونه وميله للانعزال، وحاولوا الحديث معه فأجابهم:

- لا إشكال عندي.. إنما هي رهبة وجود بحرٍ بيني وبين بلدي للمرة الأولى.

= لسنا في بوشهر حتى تقول هذا، بندر لنجة مثل بندر عباس الفارسية، إذا ألقيت حجرًا سقط في بيتي برأس الخيمة، هنا الناس ناسنا والأهل أهلنا، ستشعر بأنك في بلد آخر إذا انتقلت جنوبًا إلى السند والهند.

في المساء، سار على الشاطئ لساعتين، وكان يتوقف برهة كل حين ليجلس على إحدى الصخور، ويَستنشق نسيم البحر، ثم يستكمل حركته شاردًا.

عُرِض عليه في بندر لنجه البقاء من الشيخين اللذين التقاهما، وكان أحدهما عالَمًا في العقيدة، والآخر عالمًا في الفقه، فالمدينة فقيرةٌ في الدرس الشرعي، ولا ظهير لها من الداخل الفارسي، والجموع على الساحل الغربي يفضِّلون البقاء حيث هم، لوفرة المتشرعة والمتفقهة؛ واتصالهم المباشر مع الدرعية، لم يكن من السهل التخلي عن موقعه وتلامذته ورفاقه في رأس الخيمة، وكان عنده سبب آخر يطمح إليه، وهو أن يُرسِل إليه أهل نجد ليشاركهم الدفاع عنها لا غير، وإن كانت الأنباء الواردة تبين تصدي سعود الكبير لباشة مصر، واطمئنان الناس لاستحالة الوصول إليهم، غير أن هذا الحلم كان محالًا مما ورد إليه من أخيه، إذ عرف غضب سعود الكبير من أمير قريته لعفوه عنه هو واثنين آخرين كانت لهما صلاتٌ بالترك، وعزله عن

منصبه، وبعث يطلب أحدهم وقد كان ما زال في نجد، ولم يكترث بوجوب البحث عن الآخرين، لكن الذي تولى مكانه كان شرسًا شكِسًا سيء الطباع، ونصحه أخوه بعدم التفكير أبدًا في العودة، فالجديد حقودٌ لا يَنسى، وأخّاذ بالظنة، وما زال بعض شباب قريته لا يبرِّئون نور من الفرية الكبرى.

رجعوا إلى رأس الخيمة بعد يومين، وهناك عاد لدرسه الشرعي كما هو، لكن خفتت نبرةُ صوته المجلجلة، وعاوده قلق من رجعة اضطراب نطقه في بعض الأحيان، ولم يفهم السبب، ولجأ إلى الله كثيرًا كيلا يُنزِل به تلك العلة مرة أخرى، ووجد راحةً في العبادة لم يعتدها فاستمر فيها، وانقلبت حياته فجأة لتصبح بين منزله والمسجد، يتعبد منقطعًا، وحاول الأشياخ التسرية عنه وفهم ما حل به، إلا إنه صدهم وصد تلامذته، فتحولوا عنه طالبين له الصبر والهداية، وافترش مكانًا في المسجد لا يبرحه، غير أن هاتفًا أتاه في المنام ذات ليلة قائلًا: «استدبر التيه واستقبل العمل! إلى متى يفوقك صبيان القواسم والترك تنكيلًا بالعِدى؟ إنما نفَّقك في العلم سوء الزمان وخسة بضاعة أهله! قمْ وابْنِ لنفسك مجدًا بسيف الجهاد!.

وأفاق نور من نومه ملتاعًا، وفزع إلى الصلاة، وطالت حتى هدأ روعه، وما إن أنهاها حتى وجد الزناتي والأصفهاني يدخلان عليه المسجد!

استبشَر وقضى ساعة برفقتهما، وعلم بسبب تأخر المكلفين في الشام، إذ ابتُليت بطاعون سريع، آذى البشر، وحجز الجماعة، ثم كان زواله أسرع من حلوله، واطمأنَّ على شيخه فأبلغوه سلامه إليه، فحمد الله أن رجعوا، وروى لهما ما جرى معه إلى وقت الحلم، فقال أنس: «اخرج من قلعة المدينة! أنت والله لا تبرحها! ألا ترى كيف حثَّك رسول الرؤية على هجر خواء التحيُّر؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبلغ نور رفاقه جميعًا بقراره التفرُّغ للقتال وحده، إذ لم يعد يرى نفسه من أئمة الشريعة، فرحب بذلك أنس والحسين، وعجب رفاقه الآخرون.

- إننا نقضي الشهور بلا غزو في البحر، والتفرغ للشرع حينها خير لنا ولك.

= من لا يهمد سعيه في البحر؟

- ليس سوى القرصان إذن تبتغي! غير أنه رجل قاسٍ ليس فيه حسن ضيافتنا، ولا أظنه يقبلك.

= بل أذهب إليه.

والتفت إلى الرفيقين قائلًا:

= ما رأيكما نذهب معًا؟

- أنت تعرف جماعتنا، نحن من الآن أوفى رعايا القاسمي الكبير، ولن نرحل عنه حتى نهاية العام.

لكن مسعى نور لم يتم، فقد استدعاه أحد القواد ممن يحبونه، وقال له: «يا نور لم لا تستقر؟! اجلس في مكان واضرب في أرضه جذرًا، أما تقافزك فلن ينفعك، وماذا تصنع إن رفضك الجلاهمي، وهو لا يقبل إلا الندرة؟! ونحن في غنى عنك، وأنت المحتاج إلينا، وإن كنت تتحرق شوقًا للقتال فنحن على بعد أيام من غزوة جديدة ضد سفينتين إنجليزيتين في بحر السند، وسأجعلك في المقدمة مع المقتحمين».

سعد نور بهذا، وجاء تلميذه الحسن عبد اللطيف يتودد إليه ويرجو عودته، فقال:

- العلم قرار يا فتى، وروحي لا تعرف مثل هذا، والأحسن لك الانشغال بالأشياخ الآخرين.

كان قد حزم أمره، لن يرجع إلى الدرس، هو مقاتل، والمجالس تبطئ به روحه.

وجاء اليوم الموعود، وصعد على السفينة الأولى مع رفاقة الأربعة كافةً، إضافة لكثير من (المكلفون بالجنة)، وكانوا سعداء بشركتهم في قتال أخيرًا بعد عام من البقاء في الشام.

تحركت السفن أيامًا حتى تكرر نفس الحدث، إلا أن رؤيته من السفينة الرئيسة مختلف، فشاهد نور السفينتين الإنجليزيتين وهما يسيران على مقربة من بعضهما بعضًا، وقد علم أنهما تتحركان من كراتشي إلى مومباي، وبدأت الملاحقة المعتادة، إلا أن كلًّا من السفينتين الملاحقتين ابتعدَ عن بعضهما، وحاولت السفن الصغرى الإحاطة بهما، لكن فوجئ الجميع بالمدفعية تصيب السفن القاسمية الصغرى، وتشتعل النار في إحداها، فتعجَّلت السفن الكبرى الدخول في المعركة وتبادل القصف المدفعي، واشتعلت أعصاب الجميع، وظهرت في الأفق سفينة حربية إنجليزية قادمة، وهنا بدأ القادة في الهتاف الغاضب كي يتجهز الجميع لمعركةٍ كبرى من الجليِّ أنها لم تكن في الحسبان، أكانت تلك مكيدة من الإنجليز؟

صُدِم نور ورفاقه من حجم السفينة الحربية، فهي تفوقهم أربع مرات على الأقل، عمارة تملأ البحر، وفي كل جانب صفٌّ طويل من المدافع، لم يكن ممكنًا النجاة من هذا الهول، وبدأت المعركة تحتد بالمناورة والقصف المتبادل، وسعى كل فريق لمركزة الآخر في مرمى نيرانه، وكان قادة السفن القاسمية الكبرى ذوي مهارة فائقة في تحاشي مواجهة صفوف المدفعية

الإنجليزية، لكن سرعة القائد الإنجليزي فاقتهم، ودَنَت الكارثة، إلا أنَّ إحدى السفن توجهت فجأة إلى أكبر السفينتين التجاريتين، واقتحمتها بقوة، وقفز الجنود إلى داخلها يشتبكون مع الجميع، فأسرع القائد الإنجليزي وراءها، وانشغل باللحوق بأثمن السفن، فبان للقواسم موطن ضعفٍ عنده، فضربوه بالمدافع ولاحقوه هم، فتوقف مضطربا، بينما كانت السفينة التجارية الثانية تهرب بعيدًا، وحاول الاستدارة لتدمير الملاحقين، إلا أن سفينة نور اقتحمت سفينته، وبدأ إطلاق النار والاشتباك بالسيوف، وهلل نور مع الجميع وكبروا، وصعدوا إلى سطحها وقد تحولت إلى معركةٍ برية، وأُخِذ الجند الإنجليزي بالمفاجأة، إذ لم يتوقعوا انقلاب المكيدة عليهم، وكان القواسم غاضبين ثائرين لِقتلاهم، فأعملوا فيهم الأسياف والرصاص، واستبسل الإنجليز في الدفاع، وأدرك نور مكانة (المكلفون) في هذا الحين، فقد كانوا كالنار اللاهبة بين الجميع، يجمعون من الجسارة والذكاء والنشاط والحمية ما يفوق أهل البلد، كأنما هم الثكلى لا القواسم، ثم انضمت السفينة الثانية في الإحاطة بالإنجليز، وصعد المزيد من القواسم عليها، والتهبت مشاعر نور في أقوى ما رآه من معارك، وأطلق النار على العديد من الإنجليز، وقتل بسيفه الكثيرين، واستمر النزال وقتًا لِضخم السفينة الإنجليزية، إذ كانت كالمتاهة، ولوحِق الجند الإنجليزي في أرجائِها الفسيحة، ونبه أمراء القواسم عليهم أن يحاولوا وقف الجند عن الوصول لمخزن الذخيرة خشيةَ تفجيره وقتل الجميع، لكن لم يجرُؤ الإنجليز على ذلك، وكانت مقتلة عظيمة، وأُسِر القبطان ومساعدوه، ونُهِب الجميع، ولم تفر سوى السفينة التجارية الثانية، واحتملوا الملاحين الطَافين في البحر على السفينتين المأسورتين، وكانت وقعة كبرى تحدَّث عنها الجميع، وأُنزِل القائد الإنجليزي والمأسورون كافة إلى إحدى الموانئ الصغرى، وخُرِّبت سفينتهم الحربية ثم تُركِت في البحر، ورحلوا، ولولا أن نور يعلم أسبابهم لأنكر عليهم، وقد شرح هذا للزناتي والأصفهاني، إذ تعلم القواسم من وقائعهم مع الإنجليز أن أسر السفن الحربية، وقتل القادة القباطين، يُشعل الحرب لا محالة، بينما التحرك في حدود ما يصفه الإنجليز بالقرصنة والنهب، يمكنهم التسامح معه إلى حين، ويكفي قدر المهانة التي سيلقاها هذا القبطان من رفاقه ومن قادته، ولعله لن يرى البحر مرة أخرى بعد تلك المكيدة المدبرة التي انقلبت عليه وبالًا، ونكلت به وشردت.

وأطال نور في سجوده يحمد ربه أن أحياه مرة أخرى من موات البطالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلَّ نور على شغفه بقتال البحر، ولم يرجع إلى العلم الشرعي، وبلغته أنباء مقبضة من نجد، عن استئناف محمد علي لحروبه، وانقلاب الأحداث في غير صالح السعوديين، ووافق ذلك توديع المكلفين بالجنة له، إذ مرَّت أشهُرُ الجهاد، وآن موعدُ رجوعهم إلى الشام، مستقرهم الرئيسي، وحدَّث رفيقيه

أن يستقرا معه، فاعتذرا، وذكّرا بالعهد بينهم وبين الجماعة، فزادت موجدته من تعاقب الأحداث، وزاره سالم أخوه، وكانت تجارته في صعود ويُمْن، وأبلغه أن العساكر العثمانية قادمة لا محالة، وأن البروق تحتشد في سماء الدرعية، فسأله نور عما يصنع، وما إذا كان الأفضل له أن يأتي بأهله إلى رأس الخيمة، فضحك سالم، وقال لأخيه أنا رجل الأزمان والأمكنة، لا تقلق، لم يفهم نور وجه اطمئنان أخيه، وودَّعه خائفًا.

كانت تراوده فكرة لا تُنزع عنه، حدَّث بها رفاقه الأربعة، وهي الحصول على سفينة خاصة بهم، تكون خالصة لهم، ورفض جابر ذلك، وقال لهم إننا أصغر من أن نستقل، ولا يسمح القواسم بالانفراد، فالعمل بالجمع واجب، والوحدة هلكة، والتشرذم الضياع، وسأله سلطان عن العلة، فصارحهم نور أنه يتحرج من الاستيلاء المحض على التجارة، ويبغي أن يجعل عمله خالصًا للنكاية في الإنجليز، وذلك لا يتحقق بالحياة التي يعيشونها، وكيف لا يتوجعون من فك أسارى الإنجليز بعد قتلهم الإخوان والرفاق؟ فقال ناصر:

- قد جئت بكبير يا نور! سيتبرأ منا أهلونا، وقد نُلاحَق من الكافة! فهم يُلاعبون الإنجليز والإنجليز يلاعبونهم، أما ما تريده أنت فحربٌ خالصة، وذلك ما لن يقدر على تكاليفه أحد!

= إذن لا أحد منكم معي؟

لم يُجبه سوى أحمد قائلًا: «أنا معك». ولكنه كان يتيمًا مثله، من فقراء القواسم، فكان من الهيِّن عليه تركُ تلك الدنيا، فماتت الفكرة، وانهمك نور في الأعمال البحرية الاعتيادية، وإن كان نجمه قد صعد بالشجاعة بين القباطنة والبحارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات يومٍ زارتهم سفارةٌ من العمانيين، تُحذِّر القواسمَ مغبة التحالف مع رحمة الجلاهمي:

- قد جنح الشقي في الأشهر الأخيرة لرفع وتيرة استهداف السفن الإنجليزية، وجاوز الحد في القسوة والاصطلام، حتى نوَّهَت باسمه شركة الهند الشرقية، وأذاعت عزمَها ملاحقته حتى تخر جدرانه، ودكه حتى تقتلع جذور بنيانه، ووعدته شر قتلة، إذ أعدت له الهيجاء والملحمة، ولن ترضى بغير اجتثاث أصوله من بحر العرب.

وما رفع ذكرَه عند نور وصحبته أكثرُ من ذاك الإنذار! فتذاكروا إعجابهم القديم الذي لم ترثَّ أبدًا في نفوسهم حبائله. قال سلطان:

- ما رأيكم إذا انضممنا له؟

برقت عينا نور، بينما ندت صيحتا إنكار من ناصر وجابر.

= كيف نترك الأهل لننضم إلى رجلٍ يوم معهم ويوم عليهم؟

رد سلطان باسمًا واثقًا:

- وماذا إن ضمنت لكم أن يدفعنا إليه الشيخ الكبير نفسه؟

كان مراد سلطان إقناع ألباء قومه وذوي النُهى بحصافة توثيق المحالفة مع رحمة، وفطنة دس أعين لهم عنده، وكان يعلم تشوُّف الأشياخ لكسر الباب، واهتبال الأمراء لغرة تزيل الحجاب، ولم يُبدِ الشيخ الكبير امتناعًا، ونجحت سعاية سلطان، فوافق الساسة ممن حنكتهم الخطوب، وحزن الأهل ممن وطئتهم الحوادث.

وقضى التدبيرُ إرسال الخمسة المتآلفين إلى الدمام، معقل الجلاهمي، على أن يحضّوه على وفاقهم، ويدفعوه عن ملاحاتهم، ويحثوه على مهارشة مَن جاحشَ القواسم وضار مصالحهم، فوعدهم سلطان الأمد الأبعد من الاجتهاد في ذلك كله، وقال نور لصحبته مُنذِرًا حين أزف الرحيل: «أما أنا فأذكركم وعدنا، الجهاد لله لا الاجتهاد للأهل!»

فوافقه الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس: المبعوثون إلى رحمة

كان أول من استقبل الموفدين العشرة هو سعيد الحارثي، أحد مساعدي القبطان رحمة، وكان رجلًا ودودًا معروفًا بصلاته الطيبة مع القواسم، وقد أدخلهم عليه في اليوم الثاني، ورأوه للمرة الأولى.

كان رحمة رجلًا خمسينيًّا، عريضَ المنكبين، طويلًا ضخمًا، يعصب عينه اليسرى برقعة سوداء، داكن البشرة، يوشك ألا تجد في وجهه موضعًا دون ندبٍ، قبيح المنظر، سيئَ المعالجة، أما عينه الحمراء فلا يخمد خوفُ مَن أبصرها، إذ يند من جحوظها غضبٌ مكتوم، يجتث الطمأنينة، وينكث معقود القلوب، وتصطلم بوحشيتها كل عهد، وتجور على كل أمن، فانقبض قلب نور وكافة من معه لرؤياه، وغمغم جابر مستعيذًا من الشيطان! قدَّمهم سعيد إليه، فقال:

- أنتم من بعثكم القواسم كي تكونوا جواسيسهم عندي؟

فألجمت المفاجأةُ ألسنتهم، وزادت بلبلة الأفئدة، فإذ به ينفجر في زعقة عالية، طاشت لها عقولهم لحظةً قبل أن يدركوا أنه يضحك ساخرًا.

- لا تخشوا شيئا! إنما أمازحكم! فما عندي كي تنقلوه إليهم؟ ثم إني قتَّالٌ مع أدنى ارتياب، أخَّاذ للصحبة بالظنة في الصاحب، مؤدب للجماعة بمعصية الفرد، فإن كنتم غير مخلصين، وصدر من جهتكم أخس إيذاء، فليس عندكم حينها إلا الإسراع توبةً واستغفارًا لرب تشارفون مقابلته! ثم لا تحسبوني آبه للقواسم! أنا من وهَّى أسباب الإنجليز، وهدَّ أركان السعوديين، ووهَّن قوى البحرينيين، وفصم عرى البوسعيديين! أنا مَن اجتمع على الخشيةِ من اسمي العربُ والعجم، والذعرِ من هيعتي البحرُ والبر، والتزايلِ من غضبي البرُّ والفاجر!

خرج الجمع من عنده يرتجف، وقال أحمد في رهبة: «رباه! أتينا إبليسًا من الأبالسة!». وقال جابر: «ما صنعنا بأنفسنا؟!». وظل نور صامتًا مبلبل الفكر! أكان يشك في خلوص نية القواسم للجهاد؟ فماذا عن ذاك الرجل المتكبر المتشبه بالوحوش المنكرة! قال سلطان: «كأننا كنا في لقاء مع الشيطان أو الدجال!». وهدأ روعهم مع حلول المساء، ثم زارهم سعيد الحارثي، وأخبرهم أن رحمة يصطنع ذلك مع الجميع، فهو يستريب من كل إنسان مستجدٍّ، ويتوهَّم من كل قول مستحدث، ويشتبه في كل فعل مبتكر، ثم لا يعالج طبعه إلا بإظهار الغلظة واستعراض القسوة، لكن الوقت سيُعرفكم به، وهو خير مما تظنون. وقال سلطان بين رفاقه هامسًا: «أنأمل خيرًا من صاحب هذا الوجه؟».

كان بحّارة رحمة كما رُوِي عنهم وأشد، قرابة الألفين جلهم من الأفارقة الجلاوز، الذين يشتريهم رحمة بانتظام من زنجبار وغيرها، واتفقوا في عملقة الجثامين، وطولهم الفارع، وعظم حجم العضلات، وكذا في الجد والعمل الدؤوب وكراهة الهزل.

كانوا كلُّهم على شاكلته، ولا يشبهون في الطباع والجموع غيرهم من الزنج الذين اعتاد الشباب رؤيتهم، فلا يرقصون ولا يتناوشون بالمساخر. الكل جادٌّ في كل حين. قال نور لنفسه في الأيام الأولى: «أين البشر؟!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الأخبار قد جاءت بتوالي سقوط السعوديين، وظهر للجميع أن باشة مصر قاصدٌ إلى الدرعية، ولن يثنيه شيء عن وجهته، إذ تحالف معه أكثر العرب وساندوه، وقال سلطان ذات ليلة: «بالحق لا أخ في بلادنا إلا ابن قبيلتك». فقال نور: «إذن يرتفع اللوم! كل يعمل لصالح قبيلته!». وقال جابر: «الوفاء والمروءة؟».، فقال سلطان: «الوفاء لأهلي والمروءة لعشيرتي». امتعض نور قائلًا: «إذن يرتفع اللوم! كل يعمل لصالح أهله وأبناء عشيرته!». قال سلطان: «الأقربون أولى بالمعروف». فقال نور حازمًا: «أقرب الناس لي مجاهد بالحق، هو أهلي». وأيده أحمد، فقال سلطان متهكمًا: «أفسدكما اليُتم وعدم الأهل». فقال نور: «أأَدُلُّك على يتيمٍ قدَّم قرابةَ أنصار الله على أهله؟». فأمسك سلطان رهبةً ونكس رأسه، وكبرَ ناصر وحوقل مستغفرًا، وقال نور مكروبًا: «ألست أخًا لكم بعد كل ذلك؟». فانتثر سلطان وناصر يقبّلون رأسه ويسترضونه. وأرسل إلى أخيه يسأله هجر الدرعية واللحوق به، فبعث إليه أن يطمئن، إذ معه ما يؤمن أهله جميعًا في كل حال، ولم يفهم نور شيئًا، وظل محزونًا آسفًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء أوان التحرك، ولم يكن رحمة مثل القواسم رجلًا بريًّا يخوض البحر، بل هو رجل بحريٌّ يزور البر، فلم يكن رحيله من المرفأ يعني دومًا الخروج لصيدٍ جديد، بل كثيرًا ما يظل شهرًا أو يزيد يجوب البحر بلا هدفٍ واضح، حتى كان يمر أحيانًا بجوار غنيمة فيتركها، دون سبب واضح! وقد كان هذا أرهبُ للإنجليز، إذ لم يُبدِ يومًا جوعه للمال بذاته، أو سعيه للمجد أو الشهرة، بل كان محور طلبه هو زرع الرهبة المحضة في القلوب، أن ترتعد مفاصلك إن رأيت سفنه الستة في الأفق، وعمارته السوداء المهيبة تتقدم الجميع، وهي تحمل فوقها الثلاثمائة زنجي، يقودهم إبليس ذاته!

وعليه لم يكن سيره في البحر إلا متمهّلًا. خرج إلى بحر العرب حيث المحيط الكبير، فسألوا الحارثي الذي لزمهم أغلب الوقت ما إذا كانوا يقصدون هدفًا، فهز رأسه وقال: «لا يعلم ما في عقل رحمة إلا الله!». وكان له جواسيس كثر

في الموانئ كافةً، لكنه يمنع اتصالَهم بغيره هو ذاته، أو ثلاثة من المساعدين هم بندر، وجاسم، والمهند، والأخيرين من الزنج المستعربين اسمًا ولسانًا، والذين رافقوه طوال ثلاثة عقود، وكان يقدمهم على الحارثي.

رُصِدت إحدى سفن الهند الصغرى، فهوجمت بقسوة، وكانت أول معاينة من الشباب لطرائق رحمة المخالفة للقواسم، إذ كان يُنكِّل بجميع من يصدُّه بأدنى مقاومة، ولا يترك إلا مَن استعطفه.

ولحظ الشباب أن الخصومَ أنفسهم كانوا أشدَّ لوعةً وأملأ رعبًا في مواجهة الجلاهمي، مقارنةً بالبأس والشجاعة التي كانوا يظهرونها أمام القواسم، وقال لهم رحمة يومًا يشرح ذلك: «يطمئنون إليكم! فمهما فعلوا بكم يعلمون أن لن تردوا لهم الصاع صاعين، وأنكم تاركوهم، أما أنا فمرآيَ يُرجِف القلوب، فأنكِّل وأشرد مع أصغر خسيسة، فينخذلون عني». وعلموا فيما بعد وبعدما تتالت المعارك البحرية أن الأمر أوسع من هذا التفسير، فالجبناء كثيرا ما كانوا أشد الناس قوة في ردعهم، إذ يعرفون أن رحمة قاتل إياهم لا محالة، فتكون خشيتهم الكبرى هي زاد حماسة نفوسهم!

وقبل أن ينتصف عامهم الأول معه، كان رحمة قد وثِق ببسالتهم، ولم ينقل عنهم الحارثي -الذي عيَّنه عليهم- إلا كل خير، وقد حظي نور بمكانة لم يتصوَّرها، إذ دفعت حالةُ المعرفة الشرعية المتدنية في صفوف البحارة إلى كثرة استفتائه، وسريعًا ما كان القرصان الكبير نفسه يستشيره، وقد أفاض عطفًا غير معهود على المجموعة كلها، وقال لهم يومًا وهو باسم في رضى: «إنني أقدرُ الشجاعة والبسالة، وأهل الديانة عندي هم أهل الذُرى، غير أنهم كانوا يستنكفون العمل معي». ولم يعزب عنهم سبب نفور ذوي الديانة من رفقته، فهو عاتٍ غشوم، ينصر العقوبة على الاسترحام، وقد أدركوا بعض أسباب ذلك من كثرة خلطتهم ببحارته، فهو يُدير أشاوس جبابرة، إذا أحسوا منك هنةً أو رأوا عندك زلةً حان عندهم وقت الوثوب والتمرد. قال: «البحارة في كل الدنيا نفس الطباع، خاصة إن تخيرتهم من ذوي البأس، إنما يفسد حذقَكم بالصناعة بقاؤُكم في القواسم، فهم يخرجون ببحارة منكم، يخضعون في البحر لما أُرسي في البر، وأميركم في الأول أميركم في الثاني، وأميركم في الثاني رأسكم وعزكم في الحياة والممات، والبحر عندكم وسيلة، نُزهة شهرية، أما هنا وفي كافة أمم الدنيا البحرية كالإنجليز والفرنساوية أمير البحر ذو استقلال كبير، وخصال فريدة، وبحارته أغراب متبدلون، وآراء شتى، ومذاهب متكاثرة، لا يربطهم به ولاء، والبر عندنا نزهة شهرية». وشهدوا صدق كلامه كله، وقال سلطان يومًا: «قد انتفعنا بذاك الرجل أمورًا لم نحسب لها حسبانًا قبل هذا، ولو كنا بقينا في رأس الخيمة ألف سنة لم نكن لنصل

إلى كل تلك المعارف والمهارة». وبلغ كل ذلك الإمارة في رأس الخيمة، فبعثوا إليهم مشجعين، وشكروا لرحمة حسن سيرتِه في رُسلِهم.

ثم وصلهم ذات يوم ثلاثةُ شباب، تهلل لرؤيتهم الأربعة، وهم الأصفهاني والزناتي، والحسن عبد اللطيف، الذي تتلمذ على يد نور حينًا، وكان الخبر الأسعد لنور، إذ علم أنهم جاؤوا ينضمون إلى الجماعة، الأول والثاني إيفادًا لعام كامل من (المكلّفون بالجنة)، والثالث لانبهارة بسيرة قدوته ومعلمه نور، وقد دخلوا بهم عند رحمة فرحب بهم.

وكان سلطان ونور عنده ذات مرةٍ، فقال لهم: «لن أقول إنكم الفتيان حقًّا إلا إذا صنعتُم ما سبقتكم به، أن تستولوا على سفينة حربية إنجليزية من مرساها!». وقد عجب الجميع من هذه الفكرة، ثم تحمَّسوا لها، ووضعوا خطةً لذلك، وعرضوها عليه، فرفضها لسذاجتها، وتركهم لزمنٍ يفكرون ويتشاورون، ثم استدعاهم، وأخبرهم بأنسب الخطط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سالم القصيمي

كان سالم شاعرًا للحبِّ، لم يختص بعشقه أنثى واحدة، بل كلهن عنده مفطورات على الجمال ومخلوقات للفتنة، فكان غزله لكل أنثى، فلم يأخذه أحدٌ على محمل الجد، إذ عرفوا عنه منذ الصغر أن قلبه غير متعلقٍ بمعينة، وكان مدللًا بين أهله إلى أن عبر الصبا، واستنكف عن العمل في الإسكاف كأعمامه، وضاق برعي أخواله، فضاقوا به، إذ ليسوا بالموسرين المتحملين التواكل، وحاول التكسُّبَ بشِعره، لكن لم يكن هذا زمان تلك الصناعة، ولم يكن المدح والتسليم والمفاخرة بالمطعم إياه الكاسي، فلزم أحد التجار الذين أعجبهم شعره، وصعد نجمه بلسانه النديِّ، ونشاطه الواسع، وخرج إلى اليمن وعُمان والعراق والشام، وتزوَّج واستقرت أحواله تاجرًا نابغًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آمن سالم بأن أخاه نور تائهٌ لا يستقر، ولا يعرفُ مراده، فجعل هدفَ حياته كلها أن يتفادى ذلك المصير، وأن يشق لنفسه طريقًا خلافه، فبينما نور سائح بلا غرضٍ، اختار سالم أن يكون سائحًا للمال وحده، وبينما نور يجهل أي السبل يختار، اختار سالم التجارة يجتهد فيها مخلصًا، حتى هجر الشعر كليةً، وتزوج المرة تلو الأخرى، وصار عنده أربعة من أجمل بنات زمانه، وقد نجح في استجلاب السلاح للإمام، فحظي في الدولة، وقُدِّم عند الناس كلهم.

لما سقطت الدرعية، وبدأت محنة أهلها وتشريدهم، لم يرحل إلا بعدما زار بكوات العساكر المصرية، وعرض عليهم فتح سبل الاتِّجار بالغنائم في أرجاء الدنيا كافةً، فهو أقدر الناس على أن يستجلب لهم ما يحتاجونه، أو ينفِّق لهم

ما ينهبونه، فوافقوا وياسَروه، وحظي عندهم، وكان يعطي قومه سرًّا الكثير مما نُهِب، وتشفَّع لبعض الوجهاء، فرضي عنه قومه والترك معًا، وعجب حاسدوه من هذا الصنع الفريد، فوصمه البعض بالخسة والوضاعة وبيع أهله، ووصفه الآخرون بالبطولة والنجدة ونصرة أهله، ولم تجتمع عليه كلمة.

ثم لما رحلت الحملة العثمانية، ونزعت مخلبها من نجد، عاد يتصل سرًّا بالسعوديين، الذين كانوا يحاولون لملمة شتاتهم، وعبور محنتهم، فزودهم بالسلاح والمال، وفي الظاهر كان من المقربين للدولة العثمانية، حتى إذا قامت الدولة السعودية مرة أخرى كان من أحظى أهل نجد عند أمرائها!

ظلَّ سالم أعجوبة الأزمان كلها، ولم ينقلب عليه حاكمٌ أو وال أو أمير يومًا، فكان يجلس مُرحَّبًا به عند القواسم يومًا، ثم يجلس مُرحبًا به عند العمانيين في الآخر، وظل نجمه في صعود، وأشرك أكبر أبنائه في أموره كافةً، وروى له كيف يُصانع ويُلاطف ويدبر الشؤون سياسةً، وصارحه بمشاعره الحقيقية نحو الجميع، وحذَّره من مغبة أن يقتدي بسيرة نور، وكان يلحظ إعجاب أبنائه بعمهم، ومات عجوزًا بعد سنوات طويلة، فاجتمع في الثناء عليه الناسُ كافةً، وبكوه كثيرًا، فلمّا رحلوا عن مكان دفنه، وبقي أكبر أبنائه وحيدًا، بصق على قبره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس: قرصنة الكجرات

وصل الشباب رفقة بعض البحارة الهنود العاملين مع رحمة سرًّا إلى الكجرات في الهند، وكان معهم بضاعةٌ وَجَب أن يتاجروا فيها بين فيرافال، وقرية جوناغاد الجبلية، وراجكوت، فيكون هذا هو خط عملهم شهرًا، وفي كل مكانٍ من تلك المواضع سيعرفهم مرافق هندي من بحارة رحمة ذوي الأصول الكجراتية.

حملت تلك الرحلة متعة نفسية لمجموعة الشباب الثمانية؛ من صور الطبيعة الخضراء، ومشاهد البنايات الدينية العجيبة، والملابس ذات الألوان الزاهية، وعدم احتشام النساء الذي رأوه للمرة الأولى، فكُنّ يرتدين زي الساري الذي يُبدي منهن البطون والنحور، وقد فعلت الصورة الأخيرة بالذات فيهم الأفاعيل، وللمرة الأولى يبدي الجميع اشتياقه للزواج، وعجبوا كيف اتفقوا على نبذ سنة إعفاف النفس، فقال جابر وهو يهز رأسه مبهوتًا:

- لقد صرنا على سنة رحمة الجلاهمي! أنتزوج المغامرة ونقر في البحر مثله؟!

= البحر أولى زوجاته نعم وأحظاهن عنده، لكنه مُعدد، إنما نحن من نبذنا الزواج قبل الحضور لرحمة بزمن، أرجأناه إلى حين.

- أما نحن فالمكلفون يمنعون الزواج ما دمت منهم، فالزواج قرار، فلا علم ولا جهاد مع صاحبةٍ وأولاد.

قال الزناتي: «لا أخفيكم أني لم أتصور نفسي في العزوبة طيلة حياتي».

قال نور: «لا علم ولا جهاد مع صاحبةٍ وأولاد، هذا شعار (المكلّفون) الذي منذ سمعته تمكن في قلبي، وهذا موافق لمذاهب كثير من الأئمة».

= أنا أؤجلُ الزواج إلى حين، وليس أبدًا، ولن أقنع بغير ذلك ولو جئتموني بابن حنبل والشافعي ومالك معًا.

قال سلطان حازمًا: «الزواج حتم مقضيٌّ، أرجئوه ما شئتم لكني سأتزوج قريبًا».

كانت رياسة الأخير عليهم واضحة، وزادت أهمية جابر في تلك الرحلة لمهارته في التجارة، بينما أطلقوا على الأصفهاني والزناتي العابدين، فقد كانا أكثرهم صلاةً، يقومان بالليل ويهرولان إلى المساجد طوال النهار، ويصومان أكثر الأيام، وكانت حجتهم في الاجتهاد أنهم يرجون شهادة تلك الأرض الغريبة عليهم بحسن الديانة، أما نور فاستغل الفرصة وجال في الكجرات يزور علماءَها المعروفين في القرآن والحديث؛ مثل الشيخ صفي الدين أبو السعود في (علي دار) وغيره، وصحب الحسن في رحلاته التالية، وقد كان له حرمة

وافرة عند الأشياخ الهنود الذين رحبوا به كعربي بين تلامذتهم، وكانوا يسترسلون معه في الحديث لاشتياقهم إلى العربية، ووجد منهم ترحابًا أحرجه، لجهلهم بمهمته الحقيقية، وقد أمدوه بطلابهم يرشدونه إلى طرق القرى والمدن ودروبها، والتغلب على عوائق اللغة، وكانت حجة وجوده دومًا أنه المرافق الشرعي لإرسالية تجارية عربية، ومنهم علم نور للمرة الأولى دقائقَ الفوضى والغضبة المكتومة في بلاد الهند، ورَوَوا له الحالة السياسية للبلاد عامة، التي يحكم فيها ثاني أكبر شاه في دلهي لا يكاد يملك من أمره شيئًا، ويقعد على قلوبهم الطاغية الإنجليزيُّ المحنك إيرل مويرا، رودن هاستنغز، الحاكم العام للهند. وقد كلم جابر وأحمد، أكثر شباب المجموعة انشغالًا بأحوال سياسة الناس، وقال لهم إن القواسم مخطئون في قلة تواصلهم بالناس في الهند، إذ ليس في الأذهان هنا مُحسِنٌ في العرب سوى سلطان مسقط وزنجبار سعيد البوسعيد، وله الذكر الطيب، بينما لا يُصوِّر الإنجليز باقي العرب مثل القواسم إلا كسفاحين قتلة، حتى إن نور اعتاد سريعًا أن يخبرهم بتبعيته للسلطان سعيد، كي يجتنب الغضبة، أو سوء الظنة. وكان الأغلب على الكجرات الهندوس، غير أن المسلمين على قلّتهم لهم حشمة، وفي أناسهم صولة، وبينما تختلط الروائح الطيبة بالخبيثة في الأسواق الهندوسية، حيث يعجز الإنسان عن تمييز العود الطيب من الروث المنتن؛ كانت الأسواق المسلمة طيبةً خالصةً في الريح والمنظر، واستشنع الشباب كلهم الصور المخيفة لأصنام الهندوس، وقال الحسن ذات مرة: «كيف يعبدون هذه الصور المفزعة؟ أليس يلزم أن يتصوروا إلههم جميلًا طيبًا؟». فقال الأصفهاني: «أحسب أنهم لا يرون جمالًا في حشد الألوان الزاهية! فما من صنم لهم إلا وفيه ألف لون!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الميناء المقصود بالرصد هو فيرافال، وفيه حاميةٌ إنجليزية صغيرة لقلة أهميته، فهو مرفأ خاص بمراكب الصيد المحلية، إلا أن إحدى السفن الإنجليزية الحديثة كانت تمر به دوريًّا كل شهر في موعد محددٍ، وتظل فيه ليومين قبل أن ترحل، كان اسمها كروسيد بيرل، أي لؤلؤة الصليب، وفيها مدفعان فقط في كل جهة، إلا إنها كانت أعجوبة في سرعتها وهندستها ومرونتها في البحر، كما أن مدافعها كانت ضخمةً وفريدة في هذا الحين، فآذت كثيرًا من العرب والهنود معًا، وكان البحارة الذين واجهوها قد سموها الطريشة السوداء.

درست المجموعة على مهلٍ جوانب الميناء، فوجدته يتكون من خليج واسع، يُفضي مدخله الضيق إلى خليج آخر أشبه بنهرٍ، يزدحم بمراكب الصيد. وكانت السفن الكبيرة ترسو في الواسع، وهذه الجغرافية تضع المجموعة في مأزقٍ، إذ إن المدخل الضيق عليه حراسة من جهتين، جنديين إنجليزيينِ من البحارة

في كل جهة، ثم إن الخليج الواسع الذي يستقبل السفن يوشك أن يكون خاليًا من المراكب الصغيرة، التي قد تستخدم للاقتراب من السفينة في هدوء، وكذلك إعاقة الملاحقين من الحركة في حال فشلت المحاولة، ثم جاءت المفاجأة الثانية بوصول السفينة المطلوبة رفقة سفينة عسكريةٍ أكبر، وهو ما كان يعني أنهم سيطاردون فورًا، بأطقم أكبر في السفينة الأخرى، فتبدلت المخططات، وتوجَّسوا من الفشل.

اقترح أنس عليهم لمحةً طريفة، إذ لما كانوا يشتركون في الإعجاب بمعاطف البحرية الإنجليزية الحمراء، وسراويلهم المائلة إلى الزرقة، أخبرهم أن يجمعوا ملابس كافة من يقتلونهم من جنود الإنجليز وبنادقهم الأقوى، فوافقوا جميعًا.

وفي الليلة الثانيةِ من وصول السفينة بدأ العمل، وتطلب ذلك منهم السباحة لمسافة كبيرة في البحر، ولم يقدر على ذلك الأصفهاني أو الزناتي، فكُلِّفا بالتخلص من الحراسة الموجودة في اللسان الشرقي لمدخل الخليج، والبقاء فيه لمنع أي محاولة للاحتشاد عنده، بينما انقسم السباحون إلى فريقين، الأول يتكون من جابر وأحمد والحسن ويرأسهم نور، ومهمتهم الصعود إلى السفينة المرافقة، وإشعال النار فيها على مسافة متوسطة في البعد عن مخازن البارود، والثانية من ناصر وسلطان، ومهمتهم السيطرة على السفينة اللؤلؤة، وقد كانت المجموعة الأولى ذات التكاليف الأعقد، فطاقم الحراسة الموجود على المرافقة أكبر، وكان عليهم التخلص منه ذبحًا دون ضجةٍ، ثم الوصول سريعًا للأخرى للمشاركة في تحريكها بعيدًا عن الميناء، وقد كاد التنفيذ يكتمل بلا منغصاتٍ، إلا أن الحراسة على اللسان الأول أطلقت النار على الأصفهاني والزناتي، ما نبه الحراسة في اللسان الثاني، ولكن السيطرة على السفينتين كانت قد نجحت، ووصلت المجموعة إلى اللؤلؤة التي كان سلطان قد بدأ في تحريكها فعلًا، وامتلأ الشاطئ سريعًا بالجند، وسبح كثيرٌ منهم وراء السفينة، فأطلقوا عليهم النار، ولم يمر وقت طويل حتى ازدحم الشاطئ، وتقدم العشرات إلى اللسانين؛ للقفز على السفينة قبل خروجها، وظهر القلق على الستة عندما لم تنفجر السفينة الثانية كما قدروا، وصعد الجنود إليها لإطفاء حرائقها، في الوقت الذي اعتاص فيه موقف الزناتي والأصفهاني، اللذين عجزا عن السيطرة على طرف اللسان البحري الذي احتشد عليه الجند من كل اتجاه؛ على الرغم من بسالتهما، وفائق مهارتهما في استخدام السلاح الناري، والاختباء بين الصخور البحرية، وبان للجميع أنهما على وشك الفشل، فحوقلوا ونطقوا الشهادة.

لكن السفينة الثانية انفجرت أخيرًا، فتبعثرت الحشود الإنجليزية من هول الأجرام النارية التي سقطت في كل مكان، وظلوا لدقيقتين في حالةٍ من

الذعر والتشرذم سمحت للؤلؤة بالعبور من فم الخليج، وقفز إليهم الزناتي والأصفهاني، وسبحا إليها مسافة قصيرةً بينما كانت تلاحقهما الطلقات، واستقبلهما الحسن، بينما انشغل الباقون في زجر تكاوس العسكر من اللسان الشرقي وإرهابهم بالبنادق، وقَتْلِ كلّ من رام الصعود إليهم.

وبعدما حسَّرهم الإعياء تزايل الإنجليز عنهم، ولاحت فيرافال جمرة لاهبةً في الحلكة، فرقدوا على ظهر السفينة يلهثون كدًّا، وكان نور وحده على الدفة يُكبِّر ويُهلل.

وبعدما أفاقوا تبادلوا التبريكات، وجمعوا معاطفَ قتلى الإنجليز على السفينة إضافة لما استولوا عليه، وفاخروا بأثر الدم فيها.

وقبل الشروق لاحت في الأفق سفن رحمة، الساكنة في البحر في موضعٍ متفق عليه، وكان قد طلب منهم أن يتوغلوا في عمق بحر العرب، مبتعِدين عن الساحل، إذ سيجتهد الإنجليز في التنقير عنده، وفي الطريق إلى الخليج العربي، ولن يفكروا في العمقِ نحو الهند.

وقد استقبلهم محتفيًا، وقضوا أيامًا في فخر، خاصة بعدما نوَّلهم ملكية لؤلؤة الصليب جائزةً، وأرفدهم بطاقم من خمسين فردًا يعملون تحت إمرتهم، وكان قد عجِب من تزييهم بالمعاطف الإنجليزية الحمراء، وسعِد بأن يرى حسن بلاء أولئك الشباب، وتآلفهم العجيب، واقترح أن يطلقوا على السفينة اللؤلؤ الأحمر، وكانوا منقسمين بين لؤلؤة الدم، ولؤلؤة النار، فجمع لهما الصنفين، وقال لهم: «أنتم اللؤلؤ لا ما يحملكم، وجماع أرديتكم بالدم والنار أن تكونوا اللؤلؤ الأحمر».

وقد طلوها بلون أحمر زاهٍ، وكتبوا عليها الاسم الجديد بالعربية والإنجليزية معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع: اللؤلؤ الأحمر

في خلال عام ١٨١٨ كان رحمة واللؤلؤ الأحمر يُذكر اسمهما معًا كزعماء الصعلكة البحرية في ساحل العرب كافةً، ففي الوقت الذي انتظم فيه القواسم بأعراف وآداب للقرصنة، والتزموا اللينَ مع الأسرى الإنجليز، تميَّز رحمة واللؤلؤ بشراسة لا حدود لها مع ذوي البشرة البيضاء من الجند، وكانوا يميلون للعفو عن العسكر الهندي والمستضعفين،

كما كانوا يشتدون في معاركهم مع العمانيين، وقد بعث نور إلى أحد قادتهم ذات مرة فتوى بتحريم التحالف مع راية الصليب على المسلمين، ودعاهم إلى وقف ذلك، فردَّ عليه القبطانُ العماني ثويني البريكي بخطابٍ يُبيِّن حُرمة ما يصنعونه من ترويع للإنجليز المستأمنين، وأنهم يتعاونون مع الإنجليز لدفع إثمِ رحمة وعدوانه، ووقعت مناوشات وتضييقات من كل طرف على الآخر، حتى نأى رحمة بنفسه أحيانًا عن مساندة مغامرات شباب اللؤلؤ، ودهش من ذلك قادتُه المقربون، وعذلوه في مياسرته لهم، وإغضائه عن خروجهم على رأيه، والسماح لهم باستقلال العمل، مع حمل تبعات السياسة الهائجة، فقال لهم: «أولئك ينصرون دين الله، ولو ارتبتُ يومًا أن إخلاصهم يشينه حبُّ رياسة أو طلب جاهٍ أو جمع مغانم، ما كنتُ استبقيتُ رؤوسهم فوق أكتافهم!». وقال الحارثي: «أشهد بالله أني لم أر في حياتي أشد إخلاصًا لهذا الدين منهم، وبينهم تآلف في السن، وتآزر في العمل، واتفاق في الفكر لم أسمع به قبلهم، على اختلاف أجناسهم وألوانهم».

وأكبَرَ فيهم رفضَهم العمل معه في خصوماته مع آل خليفة أو غيرهم من منافسيه وأعدائه العرب، وتفرغهم للصراع مع الإنجليز وحدهم.

وقد علموا أن ثويني البريكي قد خرج في حملةٍ رفقة الإنجليز، يقصد بها ضرب رأس الخيمة، ولكن بعض القبائل العمانية كانت قد عرفت بأخبار هذه التجريدة، وأبلغت القواسم مبكرًا، وتوافق اللؤلؤ مع القواسم على الكمون في البحر قرب بندر لنجه، وأفتى نور ومشايخ القواسم بجواز الدفع عن أنفسهم ضد المعتدين كافةً، وعدّوا البريكي أشد طغيانًا من الإنجليز ظاهري العداوة، ولكنهم كانوا قد اتفقوا مع المبلغين العمانيين على تحاشي مسّ السفن العمانية ما وسعهم، كيلا يُنكَّل بأبنائهم، ولا ينقلب عليهم المحالفون من الداخل العماني، وبعد أن شارفت السفن المتحالفة الساحل، واستعد اللؤلؤ والقواسم لقلب الغزو تأديبًا، فوجئوا بثويني ينسحب مسرعًا بسفنه، وقد سبقه الإنجليز رحيلًا بساعة، فعلموا أنه قد ارتاب من شيء، أو وشى أحدُهم بما يُجهَّز، أو أنه يُناوِر، فتبعوه من بعيدٍ، وكانت حملة ضخمة، وطلب اللؤلؤ من القواسم مطاردتهم، فرفضوا، ورضوا بأن انحاش عنهم الهلاك،

وطلب شيخهم الكبير أن لا يتدخلوا في سياستهم مع العمانيين والإنجليز، وألا يحتسبوا أفعالهم عليهم، وقد ضحك رحمة حينما حدثوه في ذلك، وقال: «لعل ثويني هو مُبلِغَ القواسم من الأصل! هذا ثعلب كبير، وأحد أقرب رجاله إليه شاب نصف قاسمي!».

فلما رآهم متحيرين، أردف: «أحسنتم العمل في البحر كرًّا وفرًّا، لكن أخشى أنكم لن تفهموا ساسة السلاطين والأمراء قبل صراع طويل! تفقهوا في ذاك الباب، لأنكم ستواجهون يومًا جماعة من ألد الأعداء، ويظن أحدكم أنهم متفقون، فتشده من مراسلات بعضهم الخفية إليك، وإرشادك إلى ثغراتهم، وتحسب أن ذلك تدبير ومكيدة، والحق أنه قد يكون الحال كذلك، غير أنه في بعض الأحيان لا يكون، فإن أتتك الفرصة، وتيقنت من عدم الزغل، اهتبل النُّهزة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأسفر غِبُّ هذا العام عن أُولى الخلافات بين شباب اللؤلؤ، فقد كان سلطان أَمْيل للتوافق مع القواسم في سياستهم التقليل من الارتباط بأساليب رحمة، ومنع استهداف الإنجليز بخطاب الجهاد، وقال لنور:

- إنك جالب على الأهل الهلاك بتلك الفِعال، وأنت والأصفهاني والزناتي تقفزون في البحر لا حبلَ لكم، ولا شاغل وراءكم، فتَسْخو أيديكم في السرف، أما نحن فصرم حبالنا دونها خرط القتاد، وكل وجيعة وراءنا أمضى في الألم من سلخ جلودنا أحياءً، فأقلل من جعل اللؤلؤة الحمراء رهبة الإنجليز، فهم يحسبونها على القواسم شئت أم أبيتَ.

وثار اللغط بينهم، وكان نور رافضًا، قال:

= إن أنتَ حسبت الإنجليز يتقصدون القواسم بسببنا فما أقوى توهمك! كيف وقد جاؤوكم مرتين وصاولوكم لعقودٍ قبل أن يولد نور وأهله! ولو شئت الحقَّ لقلت إنك أنت من تريد أن نكون تبعًا لشيخكم، ومع إقراري بفضله، وعدم نسيان وده، إلا إننا قد تعاهدنا حين ملَّكنا الله اللؤلؤ الأحمر ألا نبتغي من العمل بها سوى الجهاد في سبيله، وإظهار الحق خالصًا، بل ومخالفة أميرنا الذي نقر له رحمة، ورضي بهذا الأمير، هذا ونحن بين سفنه، ونعيش في مرفئه وجواره، وطاقمنا يعدون أنفسهم أبناءه، فكيف تطلب منا أن نخالفه هو ثم يرضى، ولو شاء لوضع القيد في أعناقنا أجمعين، ثم نستمع إلى شيخ القواسم ورأيهم، ونتبع سياستهم وتدبيرهم، ولا نبرم أمرًا، ولا نعزم حملةً إلا وهم بين أعيننا؟ لا والله ما كان الاتباع اتفاقنا، ولا على السياسة كان عهدنا!

وجرت خصومةٌ بينهما، وكان جابر والحسن يوافقان سلطان، لكن لم يرتضيا بالشقاق، وحاولا رأب الصدع، ووقف المنازعة، ففشلا، وارتحل سلطان إلى

رأس الخيمة ومعه جابر، وظل الحسن أسيفًا، لكنه رفض الرحيل عن شيخه نور.

وقد روى نور كافة ما جرى لرحمة، فقال:

- إن سلطان فتى مخلص، لم يختل إيمانه، لكنه يشفقُ على أهله، وفي ذاك لا يلمه أحد.

قال نور: «وأنا مشفق عليهم لم أزل، وحق الإسلام والضيافة في عنقي لم يزل، غير أننا ناقشنا كثيرًا خطر ربط أنفسنا بعهودهم ومواثيقهم، فهم يوم مع الإنجليز، ويوم عليهم، ونحن دومًا أنصار الله، قبالة الإنجليز أو الفرنسيس أو من حالفهم وناصرهم».

ابتسم رحمة وهو يقول: «ينقصك بعضُ ليونة السياسة، ولا يخلونَّ إنسانٌ مكيث منها، وقد حالفت يومًا البوسعيد ضد آل سعود، ثم عدت عن ذلك، وأنا لا ألزمك بمذهبي، ولم أكن لأبجلك لو كنت ممن يتبعونه، إنما وقرتم في قلبي بإخلاصكم لهذا الدين، وحميتكم لنصرة أهله، لكن يجب يا شيخ نور أن ترقَّ لحال الناس، وترأف لأمزجتهم، فلا تكن مثلي، ولا تشاكل المحيطين بي، المخالف عندنا واحد، مؤمنًا كان أو كافرًا!».

لكن سلطان وجابر لم يرجعا، واستُؤنفت الحملات مع رحمة، وارتفعت وتيرة غضب نور، وبان للجميع تبدل طباعه بعدما صار قبطانًا، إذ صار أَمْيل للزعق في طاقمه، والخصام مع رفاقه، وترك الزي الأحمر الذي اعتادوا الخروجَ به في معاركهم، واشتد قسوةً مع الإنجليز، حتى رصدوا مكافأةً لحرق سفينته، بمعزل عن جائزة قتل رحمة، فقال القرصان له ضاحكًا:

- قد ساويتني يا فتى في سنين قليلة! ولو أنصفت معك لتخلصت منك يا منافسي الشاب!

إلا أنه آنسَ به وهشَّ لهم، وقرَّظه في الخاصة قبل العامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبلغَهُ جواسيسُ رحمة بأنباءِ حملة إنجليزية لم يُرَ مثلها من قبل، حُشِد فيها كل عملاقٍ من السفن، ومُنكِّل من المدافع، ومبرز من البحارة والحشود العسكرية، واهتم رحمة بذلك، وعرَّف القواسم، فأنبأوه بأنهم توقعوا ذلك، إذ أبلغهم بعض العمانيين من مرافقي الإنجليز أن إنجلترا قد هدَّأت جبهة أوروبة، وقررت أن تُرجِع ذخائرها إلى بحر العرب، وضرب كل من صال في سنوات الوهن الماضية، وكان القواسم رأس المطلوبين، فأبلغهم رحمة أنه سيبقى بأسطوله بين بندر لنجة ورأس الخيمة، وسيناصرُهم في تلك المعركة، لكنهم

رفضوا ذلك، وطلبوا منه أن يرجع عنهم، خشية إفساده لأي معالجة قد يعرضونها تنهي حملة الانتقام الإنجليزي.

لم يبق مع نور سوى الأصفهاني والزناتي، إذ لحق الكل بأهله في رأس الخيمة، ودخلا عليه وهو يقرأ في قمرة اللؤلؤة، ووبخاه أن يتردد في الرحيل إلى رأس الخيمة، ونصرة أهلها، فقال لهم: «يعلم الله أنني متألم لهذا، لا أرتضيه، لكننا صرنا خصومًا عندهم، وما قالوه لرحمة ربما قيل لنا، وأنتم تعرفون حدة سلطان، وتدركون أنه قد يُذعِّر علينا الناس».

فرفضا هذا الاعتذار، وقال الزناتي:

= قد علمت أنا هجرنا المكلفين قنوعًا برأيك أن نصرة هذا الدين أعظم باللؤلؤة، وأن إعلاء رايته في هذا الموطن أغيظ لأكبر أمةٍ كافرة في أوروبا إنجلترا، وقد كنا نطلبهم ولا يطلبونا، ونترصدهم ويفرون منا، فكيف نقعد وهم ينزلون بالمسلمين متوعدين؟

فلم يجادلهما نور طويلًا، إذ لم يقر لرأيه أبَدا، ورحلوا جميعا إلى رأس الخيمة برًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن: ضاية

نزل الإنجليز في بحر رأس الخيمة، واشتبكوا بالسفن الموجودة فيه أولًا، ولم يكن نور ورفيقاه قد وصلا، ولم تستمر المعركة البحرية طويلًا، إذ أغرقوا الجميع، ودخل الثلاثة المدينةَ والصراخ عالٍ من جهة البحر، وحشود الشباب تجتمع لاستقبال السابحين إليهم من السفن الغارقة، وتنظيم الصفوف لمقاومة نزول الإنجليز للبر، لكن ذلك لم يحدث، وقد فرح نور عندما لقي رفاق اللؤلؤة الخمسة وقد نجَوا من معركة البحر، وانضموا إليهم في صد العدوان، واعتذر في تلك الليلة نور لسلطان عن التأخر، وعن الملاحاة بينهما، وقبَّل رأسه، وكذا فعل سلطان، وكانوا على ثقةٍ بأن هذه هي الأيام الأخيرة التي يقضونها معًا، فأكثروا من الصلاة جميعًا. قال نور:

- أين باقي السفن؟

= فرق شيوخنا أكثرها بين بلاد الساحل والبحرين، بإذن الله ستمر تلك الغمة ويستعيدوا نشاطهم بسرعة.

- والله لألعبن بعدها بجماجم الإنجليز.

استمرت السفن الإنجليزية في البحر أمام رأس الخيمة قرابة العشرة أيام دون حراك، وقد مُيِّزت راية السلطان سعيد البوسعيد، الذي بعث بعض قواته في سفينة، وقد أبلغ أحد رجاله شيوخ القواسم سرًّا عجز سعيد عن رفض طلب الإنجليز حتى لو أراد، وقد وعدوه بضم ساحل الخليج إلى سلطانه إن وافق على المشاركة، وأعلمهم المقربون منهم في مسقط أن تلك الحملة لا سابق لها في بحر العرب، ولا مثيل لها في تاريخهم المعروف، وقد رمى الإنجليز بصفوة رجالهم، سواء قباطنة أو بحارة أو مقاتلة بر، فالأحسن ألا يطيلوا من المعاندة.

لكن القواسم كانوا يعلمون أن الإنجليز ما حركوا يومًا كل ذلك إلا وقد طلبوا الدم والنار، ولن ينزعوا عنهم إلا بملحمة، فتترَّسوا وتجهزوا، وفرقوا سفنهم وأبعدوها، وكذا فعل ساحل الخليج كله، ورحَّلوا قدرًا من السفن إلى غير رأس الخيمة، وكانوا على ثقة بأن الإنجليز سيغرقونها، ويتناوشون معهم في الصحراء، لكنهم لن يتحملوا، وسيرتدون على أعقابهم، وليس عليهم إلا الصبر والجلد، فهذه أرضهم وهم بها أخبر، وبدروبها أعلم.

وفي السادس من ديسمبر استيقظ الجميع في تحصيناتهم على أصوات رعدٍ من جهة البحر، وارتجت الأرض، وارتفع صراخ النساء وصياح الرجال، وانتشرت النيران في العديد من المواضع، إذ بدأت السفنُ التي تراصت ليلًا أمام المدينة قصفَها، وسُمِع دويٌّ من جهة البر أيضًا، ودَهْدَهتهم حشود

إنجليزية، فتصدوا لها، وقضوا يومًا عصيبًا في المواجهة، وبرغم هول الموقف، كان الجميع صابرًا واثقًا من النصر، وقُتِل الحسن في هذا اليوم من قذيفة مدفع دمرت التحصين الذي كان يحتمي فيه هو وعشرات غيره، وأصيب أحمد في قدمه ونُقِل إلى موقع التطبيب والجراحة، ثم جاء اليوم الثاني بالفزع، إذ اشتد الضرب من ثلاث جهات، البحر والجنوب، وبان أن الإنجليز يضربون حصارًا على المدينة، وصابروا وجاهدوهم، لكن المؤلم أن الإنجليز لم يكونوا يحاربون أبدًا بصورة مفتوحة، بل يتحصنون على مسافات بعيدة، ويدقون أوتاد القواسم بمدفعيتهم الدقيقة فادحة الأثر، فكثرت المقتلة وحُصِد المئات، بينما يوشك الإنجليز ألا يمس جانبهم، واشترك جابر في محاولة التفاف تحت إمرة أحد أشياخ القواسم، لكن مدافع الإنجليز حصدتهم جميعًا، ولم تُبقِ أحدًا. وانتهى اليومُ بشرٍّ حال، وجلس نور والأصفهاني والزناتي وسلطان وناصر معًا صامتين، وجوههم مغبرةٌ مسودةٌ من آثار الحرائق والرزايا، وكان أولهم الأكثر غيظًا، فتلك المعركة تذكره بأيامٍ مؤلمة مضت، ولم يحسب أن يشهدها مرة أخرى. وفي صباح اليوم الثالث بانت صعوبة الاستمرار على ذلك، وفَتَّ في عضد الجميع اشتدادُ الضرب بعدما تصوروا أن ليس في إطاق الإنجليز أكبر مما مضى، وبعد العصر، كانت السماء قد اختفت وراء الدخان الأسود، بينما الحرائق في كل موضع، والسفن الإنجليزية العملاقة المرصوصة في الأفق الأحمر لا يتوقف دوي مدافعها، والجثث في كل مكان، ثم فوجِئوا باختراق إنجليزي لقلب المدينة، لا يدرون كيف تمَّ، لكنه انتهى برفع العلم البريطاني فوق منازل أشياخ القواسم، وأُبلِغ الجميع بوضع السلاح، فقد أُمسكوا بالقادة، واستسلم الشيخ الكبير.

كان نور مصدومًا، وأخبر جماعته بأنه لن يسلم نفسه للإنجليز، واتفقوا على ذلك، فخرجوا من رأس الخيمة سريعًا، وتواعدوا على اللقاء في الرمس شمال المدينة، وبعث سلطان معهم أهله كي يعتنوا بهم مع المئات الآخرين من النساء والعجائز والأطفال والجرحى من الجند، الذين تقرر تأمينهم في قلعة ضاية الواقعة على تلٍّ في شمال المدينة بعد الرمس، وقد قرر الشيخ المسئول عن حمايتهم أن يحفظ النازحين الضعفاء في القلعة، وكانوا حوالي الألف، وأن يتوجه بالجند للرمس من أجل صد أي سعيٍ إنجليزي للتحركِ نحوهم، وفرق جنده بين الأشجار الكثيفة الموجودة قبل القلعة، وحول التل.

مضت عشرة أيام، عمل الإنجليز فيها على تصفية أماكن المقاومة الباقية كافةً، وفكر نور وأصحابه في الرجوع إلى المدينة، لكن سلطان لحق بهم، وأنبأهم بأن السفن الإنجليزية لم تكتفِ برأس الخيمة، بل هاجمت أم القيوين وعجمان والشارقة، بل حتى البحرين وبندر لنجه، وأغرقت كل سفينة للقواسم، وقتلت كل من فيها، وقصفت القلاع كافةً، وأنزلت الجند مرات عديدةً، وهم يسيئونِ معاملة الأسرى ويُغلِظون عليهم. قال نور: «ما العمل؟».

قال له سلطان: «أظنهم سيتوقفون، فلم يتبق سوى ضاية، وهي مزدحمة بمن لا يُؤْبَه بهم عند أولئك، ولا يجرؤون على مس نسائِنا وأطفالنا». لكن الزناتي شكك في ذلك، وقال له: «أنا والأصفهاني قاتلنا الصرب والروس في أوروبة، وهم أمثال أولئك في القسوة والغلظة، وعندهم حقدٌ علينا عجيب، ويجب أن نكون منهم في حذر». وظل الجميع في قلق.

في الليلة نفسها جاءت الأنباء بتحرك الإنجليز إلى الرمس، فاستعد الرجال، وكانت الخطة هي المقاومة غير الرابضة في مكان، وشكل كل أربعة أو خمسة فريقًا، فكانت مجموعة اللؤلؤة الأربعة وحدةً متآزرة. وقضوا يومًا عصيبًا في مقاتلة الإنجليز ودفعهم، لكنهم سمعوا دويَّ المدافع من جهة القلعة، فأدركوا أن الإنجليز قد مروا بهم، والتفوا عليهم، ولم يتوقفوا كثيرًا عند كل مقاومة، فهم يقصدون القلعة ذاتها، وصرخ سلطان غضبًا، وحاولوا المخاطرة بكشف مواضعهم، كي يصلوا إلى القلعة، لكنهم عجزوا تمامًا، وكانت ليلة ليلاء، وكان نور أشدهم بكاءً، إذ وصلت إلى مسامعهم صرخات النساء وبكاء الأطفال، ولم يتوقف الإنجليز عن الضرب، كان لا يصدق أن أولئك الجلاوزة الغلاظ يصنعون ذلك، أما الأصفهاني والزناتي فاجتهدا في الصلاة والدعاء، وفي صباح اليوم التالي استيقظ الجميع على زلزلةٍ لم يسمعوا مثلها قبل اليوم، وارتجت التلال والسهول بصوتِ مدفع عظيم التنكيل، ومن خبراتهم، اتفقوا جميعًا أن هذا مدفع بحري عملاق، وليس من مدافع القتال البري، وقرروا أن يجاهدوا إلى الموت، إذ علت صيحات الاستغاثة والتكبير وصرخات النساء والأطفال في القلعة الصغيرة المكشوفة، التي لا يوجد في ساحتها الواسعة ما يُحتمى به، فكانت الانفجارات مزلزلة، وتطايرت الأشلاء في السماء، وصدَّ كثيرٌ من المقاتلة الجرحى عنها بالبنادق، وأصيب الجميع، وقبض الإنجليز عليهم الأربعة، وانهالوا عليهم ضربًا وصفعًا حتى غابوا عن الوعي، في حين انهارت أسوار القلعة، واندفع الجند إلى داخلها يأسرون الجميع، وأخرجوهم مكبلين بالأصفاد، ثم فجروها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع: البحر المفتوح

حبس نور نفسه جالسًا في قمرته باللؤلؤة يتعبد، حتى وهي راسية في الميناء، إذ صارت موئِله وبيته. حاول أن يقرأ في الشرع، أن يتذوق الأدب، أن يجتهد في العبادة، لكن الجرحَ الغائر في نفسه كان ينزف قيحًا لا يتوقف. انتهى كل شيء!

فَكَّ الإنجليزُ أَسرهم بعدما أُجبِرَ شيخ القواسم على توقيع معاهدةٍ عامة للسلام مع الإنجليز! سلام!

وقد وقَّع الساحل كله إلا القليل، وكان موعد رحمة في التوقيع قادمًا لا ريب، فالإنجليز لن يرحموا مخالفًا، وقد آذوا الجميع، وأسفروا عن عتوٍّ بطشهم. وعلم أن أحد القادة الإنجليز قال: «قد شغلنا عنكم الحروب مع نابليون، فظننتم أنكم شيءٌ، وها قد عدنا لنؤدب كل مستطيل!».

دُق بابُه، وجلس معه الأصفهاني والزناتي يبلغونه بقرب عودتهما إلى الشام، وربما ينضمون إلى المكلفين بالجنة مرة أخرى، لكن ليس قبل الانهماك في العبادة والتعلم حينًا، فدمعت عيناه ولم يُجِب، وطلب منهم التمهل بضعة أيام، لعله يرحل معهم.

وضاء نهار يوم حار، حينما رأى سلطان وأحمد وناصر أمام السفينة، فهرول إليهم واحتضنهم، وبكى في حرقة، وكانوا أشد منه تألمًا، وصعدوا إلى المتن يروون له المستجدات، ويعلمونه أن القواسم بعثوهم مع مجموعةٍ لإبلاغ رحمة بعرض الإنجليز التسليم والمصالحة، مرفقًا بتهديدٍ قوي له أنهم لن يقبلوا منه سوى الإذعان الكامل.

وقد اجتمع الستة الأحياء الباقون عليها للمرة الأولى منذ أشهر، وغمرهم نشاطٌ عجيبٌ خفف من آلامهم، وباتوا فيها، إلا إنهم استفاقوا قبل الفجر على جلبةٍ عالية، وخرجوا فوجدوا المئات يركبون السفن، وبلغهم أن رحمة قرر التجول في البحر قبل الوصول إلى قرارٍ، ثم ألجمت ألسنتهم مفاجأةٌ أخرى بصعود رحمة نفسه إلى سفينتهم، فرحبوا به في دهش وتعجب.

وعند الشروق كانت السفن في قلب البحر، والتفت رحمة إلى نور وجماعته، وسأله عن سبب عدم ارتدائهم الزي الأحمر، وطلب منهم أن يفعلوا، فامتثلوا له، وتراصوا حوله، فصعد إلى مقدمة السفينة، مواجهًا الشمس، وقال لهم: «إنني متهم دوما بأني لا أعرف السياسة، وقد عشت زمنًا أُبيِّن أني أفهم للسياسة من غيري، ومهادنة الإنجليز لم يعد خيارًا، بل واجبًا، فبدون ذلك سيؤذون الذراري والأهل ويدمرون العمائر والمدائن».

زفر نور، ونكس رأسه مكروبًا، وأسند راحته إلى حافة السفينة، فإذ به يجد في صوت رحمة نشاطًا مفاجئًا، وهو يقول: - وأنا لا وراء ورائي، ولا مدينة تحملني، إنما وطني البحر، وطعامي الإنجليز!

فغر نور فاه مذهولًا، وتبادل النظرات مع رفاقه المشدوهين، وبدا كما لو أن العملاق قد سد الشمس عنهم، ورفع سيفه إلى السماء، هاتفا: «أنا رحمة عذاب الإنجليز، وسأظل مرهبهم حيًّا كنت أو ميتًا!»، والتفت إليهم هاتفًا: «أيها اللؤلؤ الأحمر، علمت أن حمقى الإنجليز لهم سفينة متغطرسة في جزيرة البحرين، واقفة وحدها تظن في مدافعها المنعة الكافية، فما رأيكم؟».

هتف الستة جميعًا فرحين، وهم يتقافزون سعادةً، وصخبت السفن كلها، فالتفت وهو ينزل سيفه مشيرًا للأفق، والسفن المحيطة به كلها ترقبه، وزعق بصوت كالرعد: «إلى البحرين!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول: لهيب الحجاز

الفصل الثاني: قلعة لوبتش

الفصل الثالث: مجالس شامية

الفصل الرابع: خليج القواسم

الفصل الخامس: المبعوثون إلى رحمة

الفصل السادس: قرصنة الكجرات

الفصل السابع: اللؤلؤ الأحمر

الفصل الثامن: ضاية

الفصل التاسع: البحر المفتوح